كتب قيمة

٥٩

لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

لماذا تأخر المسلمون
ولماذا تقدم غيرهم؟

دار القلم
دمشق

أسّسها:
محمد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

الطبعة الثالثة
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد؛ فإنّ تخلُّف المسلمين هو معضلة المعضلات، التي وقف أمامها العلماء والمفكّرون، يقلّبون فيها وجوه النظر، فمنهم من نظر إلى جانبٍ وأغفل جانباً، فجاء حلّه ناقصاً. ومنهم من نظر نظرة شمولية كالأمير شكيب رحمه الله في كتابه هذا فجاء الجواب أدنى إلى الحقيقة.

لا أشكّ أنَّ التخلف هو نتيجة عوامل داخلية ذكر بعضها الأمير؛ كالجهل (والعلم الناقص جهل مركَّب) واليأس والكسل، ومنها عوامل خارجيـة سبَّبها العدو الغازي، الذي أحسَّ بضعف المسـلمين، فجيَّش الجيوش لاحتلال بلادهم، ونهب ثرواتهم، وسلب حرياتهم، وعندما رحل ترك أذناباً له، يقومون بمصالحه ويحققون مآربه كأنّما يباشر ذلك بنفسه، وهؤلاء أخطرُ على مصيرِ الأمة من العدوِّ نفسِه.

ورصد مظاهر التخلّف الداخلية والخارجية وعدم إغفال

أيٌّ منها هو الخطوة الأولى لمعرفة الأسباب التي أدَّت إلى هذا الواقع المزري الذي تعيشه الأمة من المحيط إلى المحيط.

والأمير شكيب بما عُرف عنه من العلم الواسع، والتجربة العميقة المتميّزة، والاهتمام الصادق بشؤون الأمة المسلمة، والمتابعة الحثيثة لمشكلاتها وأحوالها هو أحرى من يتصدَّى لبيان سبب تخلّف المسلمين وتقدّم غيرهم.

لقد تحدَّث الأمير عن **مظاهر التخلّف وأسبابه**، فذكر منها الجهل والتقليد والبخل والخوف من المغامرة، وبين أن ذلك يورث في الأمة الوهن، الذي هو حب الدعة والكسل والتواني والنظرة الجامدة.

كما تحدَّث الأمير عن **الفساد** الذي هو السبب الأكبر للتخلُّف، وخاصة فساد الأمراء والعلماء، وما يجرّه على الأمة من بلاء، ففساد الأمراء والعلماء يَحُول بين الأمة وبين الإصلاح أو البناء، ولذا كان السبيل نحو التقدّم لابد أن يسلك سبيلين:

الأولى: **سبيل العلم النافع**، الذي يشمل الروح والجسد، والفرد والجماعة، والعاجلة والآجلة، وهذا يحتاج للإرادة الحازمة، والصبر والمصابرة والتضحية والبذل.

والسبيل الثانية: **سبيل الأخلاق القويمة**، التي هي ثمرة التدين الصحيح، والالتزام الصادق بالإسلام الذي أنزله الله تعالى على نبيّه محمد ﷺ، وتمَّم به مكارم الأخلاق، وصلح عليه أمر

هذه الأمة في أولها، فكانت لها حضارة أسهمت في تقدّم الإنسانية إسهاماً عظيماً.

ومن خلال هاتين السبيلين يمكن القضاء على الجهل والفساد، وإلا فلا أمل بالنجاح، وسيبقى التخلّف ينوء بكلكله على صدر هذه الأمة.

وخصَّ الأمير أذناب الغرب ودعاة الفرنجة بالحديث الطويل، ففنَّد شبهاتهم التي يريدون من خلالها عزل الإسلام ـ الذي هو عصب الأمة الذي يحركها ـ عن الحياة، ورد على دعاة التثبيط، الذين يشكّكون الأمة في قدراتها، ويسلبونها ثقتها بنفسها، ويزرعون الفشل والشكّ في قلوب أبنائها، وأنهم أعجز من أن يصنعوا شيئاً ذا بال.

والكتاب بما تضمّنه من نظرات ثاقبة وآراء حصيفة لا يزال يمثّل ورقة عمل يمكن الانطلاق منها إلى درس ملف التخلّف الذي يزداد كل يوم تعقيداً، ويحتاج لجهود قد لا يطيقها فرد مهما أوتي من علم وخبرة، ولا بد أن تنهض به مؤسسات إسلامية متخصصة.

كان الأميرُ شديدَ العناية بهذا الكتاب، ومن مظاهر ذلك طلبه من الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً أن يترجم الكتاب إلى التركية، كي يقرأه الأتراك، فتزولَ عن أعينهم الغشاوة الكمالية، التي زعمت زوراً وبهتاناً أنَّ الإسلام هو سبب تخلّف الترك، وتجاهلت كلَّ سبب حقيقي لهذا التخلُّف.

عملي في هذا الكتاب:

١ ـ اعتمدت الطبعة الثالثة التي طبعت في حياة المؤلف وإشرافه، وبذلك تلافيت كثيراً من التصحيفات والسقط الذي وقع في الطبعات المتداولة.

٢ ـ وضع علامات الترقيم، وضبط ما يحتاج لضبط.

٣ ـ ترجمة موجزة للمؤلف.

٤ ـ لما كان الكتاب سينشر ضمن سلسلة (كتب قيمة) التي تصدرها دار القلم الغرّاء، وكتب هذه السلسلة ذات حجم معين: اقتصرت في تعليقاتي على الضروري جداً.

٥ ـ ألحقت بالكتاب فصلاً تضمن الكلمات المأثورة للأمير الواردة في هذا الكتاب.

وفي الختام أشكر الأستاذ الجليل محمد علي دولة الذي رغب في نشر هذا الكتاب في دار القلم ضمن سلسلة (كتب قيمة) الواسعة الانتشار، ليعمّ النفع به، فجزاه الله خيراً.

أسأله تعالى أن يتقبَّل منّا جميعاً عملنا، وينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

دمشق ١٤/ ٥/ ١٤٢٤هـ
١٣/ ٧/ ٢٠٠٣م

حسن الهاشمي سويدان

الأمير شكيب أرسلان في سطور

● أشهر مفكري ورجالات الإسلام في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر.

● ينتسب إلى قبيلة (لخم) اليمانية.

● ولد في الشويفات في لبنان في ١/ ٩/ ١٢٢٦هـ الموافق ٢٥/ ٥/ ١٨٦٨م.

● قرأ القرآن منذ نعومة أظفاره، وحفظ جزءاً منه.

● درس في المدرسة الأمريكانية في قريته، ثم في مدرسة دار الحكمة ببيروت، ثم درس في المدرسة السلطانية، وكان أستاذه فيها الشيخ محمد عبده.

● سافر إلى دمشق مراراً، وتلقَّى عن علمائها.

● سافر إلى مصر، وساهم في الكتابة في صحفها كالمؤيد وغيرها.

● شارك في الحرب الطرابلسية ضد إيطالية.

● سافر إلى إستانبول، والتقى الأفغاني، وشغل منصب عضو في مجلس المبعوثان العثماني.

● سافر إلى فرنسة، والتقى هناك أمير الشعراء أحمد شوقي.

● شغل منصب مفتش بعثات الهلال الأحمر المصري إبَّان حرب البلقان.

● أقام في جنيف، إذ منعته دول الاستعمار من الدخول إلى أيِّ قطر عربي.

● امتاز بمعرفته الواسعة، وتجربته العميقة المتميّزة، مما أهَّله ليكون مرجعاً للأمة فيما أشكل عليها من الأمور المصيرية، ورجل الأزمات التي يُناط به حل المعضلات السياسية.

● عُرِفَ باهتمامه بشؤون المسلمين أينما كانوا، ودافع عن قضاياهم في مجلته (الأمة العربية) وغيرها من المجلات.

● عرف بإشراق عبارته، وجمال ديباجته في نثره وشعره، ولذا لُقِّب بأمير البيان.

● له مؤلَّفات جليلة هي مرجعُ الباحثين في قضايا المسلمين المعاصرة.

● توفي في بيروت في ١٥/ ١/ ١٣٦٦هـ الموافق ٩/ ١٢/ ١٩٤٦م، وصُلِّيَ عليه في الجامع العمري ببيروت، ودُفِنَ في قريته.

* * *

لماذا تأخر المسلمون؟

ولماذا تقدم غيرهم؟

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم ؟

﴿ من قلم أمير البيان ﴾

الأمير شكيب أرسلان

رئيس المجمع العلمي العربي

في سورية

عليه حواش من قلم فقيد الاسلام العلامة السيد رشيد رضا

وقد أضيفت إليه زيادات على هذه الطبعة الثالثة من قلم المؤلف

(وهو جواب افتتاح كتب لمجلة المنار خاصة سنة ١٣٤٨)

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

« الطبعة الثالثة في سنة ١٣٥٨ »

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

الصفحة الأولى من الطبعة المعتمدة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد ١١].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

كتبَ إليَّ تلميذي المرشد الشيخ (محمد بسيوني عمران) إمام مهراجا جزيرة سمبس بورنيو (جاوة) كتاباً يقترحُ فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتبَ للمنارِ مقالاً بقلمه السيَّال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر، وأسباب قوة الإفرنج واليابان، وعزَّتهم بالملك والسيادة، والقوة والثروة.

وقال في كتابٍ آخَرَ: إنَّه قرأ ما كتبناهُ في (المنار)[1] و(تفسيرِه)[2] من بيانِ الأسبابِ في الأمرين، وما كتبَه الأستاذ الإمام[3] في مقالات (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) في الموضوعِ، وإنَّما غرضُه أن يكتبَ في ذلك أميرُ البيان بقلمِه المؤثِّر المعبِّر عن معارفِهِ الواسعةِ، وآرائِهِ الناضجةِ، لتجديدِ التأثيرِ في أنفُسِ المسلمين، بما يناسِبُ حالهم الآن، لتنبيهِ غافلِهم، وتعليم جاهلِهم، وكبتِ خاملِهم، وتنشيطِ عاملِهم.

وبنى الاقتراحَ على الأسئلة الآتية، التي صارت مثارَ شُبهةٍ على الدين عند غيرِ علمائِه، فهو يعلَمُ ممَّا سمعَه من دروسنا في (مدرسة الدعوة والإرشاد)[4]، ومما كتبناه مراراً في (المنار)

---

(١) هي مجلة المنار التي كان يصدرها السيد محمد رشيد رضا. (م)

(٢) تفسيره: تفسير المنار الذي ابتدأه الشيخ محمد عبده وأتمّه السيد محمد رشيد رضا. (م)

(٣) الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) مفتي الديار المصرية. (م).

(٤) مدرسة الدعوة والإرشاد: أسسها محمد رشيد رضا عام ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م، وهي مدرسة إسلاميّة تدرَّس فيها جميع العلوم والفنون التي تدرَّس عادةً في الكليات مع التربية الدينية، وزيادة عناية بالعلوم الإسلامية، وتنشأ أقسامها بالتدريج، يبدأ فيها بقسمٍ عالٍ لتخريج دعاة الإسلام. انظر رشيد رضا الإمام المجاهد، للدكتور إبراهيم العدوي، ١٨٠ وما بعدها. (م)

و(التفسير) أنَّ كتابَ اللهِ تعالى حجةٌ على أدعياء الإسلام والإيمان، وليسوا هم حجةً عليه.

* * *

اقترحتُ هذا الاقتراحَ لحملِ أخي ووليي الأميرِ شكيب على كتابةِ شيءٍ مثل هذا للمنار، وأنا الذي أنصحُ له دائماً بتخفيفِ أحمالِ الكتابةِ عن عاتقِه، لكثرَةِ ما يكتبُ لصحفِ الشرقِ والغربِ، وللأصدقاءِ وغيرِهم، فأرسلتُ إليهِ كتابَ (الشيخ محمد بسيوني) عُقْبَ وصولِه إليَّ، فأرجأَ الجوابَ عنه لكثرَةِ الشواغل، إلى أنْ عادَ من رحلتِه الأخيرةِ إلى إسبانية، وقد أثَّرت في نفسِه مشاهدُ حضارَةِ قومِنا العرب في الأندلسِ والمغرب الأقصى، وشاهدَ تأثيرَ محاولةِ فرنسة تنصيرَ البربر في المغرب، تمهيداً لتنصيرِ عربِ إفريقية المرزوئين باستعبادِها لهم، كما فعلت إسبانية في سلفهم في الأندلس ـ فكتبَ الجوابَ منفعِلاً بهذه المؤثّرات، فكان آيةً من آياتِ بلاغتِه، وحجّةً من حُجَجِ حكمتِه، لعلَّها أنفعُ ما تفجَّرَ من ينبوعِ غَيرتِهِ، وانبجسَ من مَعِيْنِ خِبْرَتِهِ، فسالَ من أنبوبِ يراعَتِهِ، جَزاهُ اللهُ خيرَ ما جَزَىٰ المجاهدينَ الصادقين.

محمد رشيد رضا

هذا نصُّ كتاب السائل، ويتلوه جوابُ الأمير. وقد وضعنا له بعض العناوين، لأنَّها كمحطَّات الطريق للسالكين، وعلَّقْنا عليه قليلاً من الحواشي المفيدة للقارئين، كما فعلنا ذلك في كتاب (الإسلام والنصرانية) لشيخنا الأستاذ الإمام رحمه الله[1].

كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الأستاذ المُصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب (المنار) نفعني الله والمسلمين بوجودِه العزيز آمين.

السلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

أما بعدُ: فإنَّ مَنْ قرأَ ما كتبَه في (المنار) وفي الجرائد العربية العلاَّمةُ السياسيُّ الكبيرُ أميرُ البيان (الأميرُ شكيب أرسلان) من مقالاتِهِ الرنَّانةِ المختلفةِ المواضيع، عرفَ أنَّه مِنْ أكبرِ كُتَّابِ المسلمين المدافعين عن الإسلام، وأنَّه أقوى ضِلْع للمنار وصاحبِهِ في خدمةِ الإسلام والمسلمين، وإنّي أرجو من الله تعالى أن يطيلَ بقاءَهما الشريفَ في خيرٍ وعافيةٍ، كما أرجو من مولاي الأستاذِ صاحبِ المنارِ أنْ يَطْلُبَ من هذا الأميرِ الكاتبِ الكبيرِ أنْ يتفضَّلَ عليَّ بالجوابِ عن أسئلتي الآتية، وهي:

---

(١) تنبيه: الحواشي التي من قلم العلاّمة محمد رشيد رضا رحمه الله عليها التوقيع بحرف (ر)، والحواشي المضافة إلى هذه الطبعة من قلم المؤلف عليها التوقيع بحرف (ش).

(١) ما أسبابُ ما صارَ إليه المسلمون (ولا سيّما نحنُ مسلمو جاوة وملايو) من الضعفِ والانحطاطِ في الأمور الدنيوية والدينية معاً، وصِرْنا أذلاّء، لا حَولَ لنا ولا قوّة، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون ٨]

فأينَ عِزَّةُ المؤمنين الآن؟ وهل يصحُّ لمؤمنٍ أن يدعيَ أنَّه عزيزٌ، وإنْ كانَ ذليلاً مُهاناً، ليسَ عندَه شيءٌ من أسبابِ العِزَّة، إلا لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

(٢) ما الأسبابُ التي ارتقى بها الأوروبيون والأمريكانيون واليابانيون ارتقاءً هائلاً؟

(٣) وهل يمكنُ أن يصيرَ المسلمونَ أمثالَهم في هذا الارتقاء، إذا اتَّبعوهم في أسبابِه، مَعَ المحافظةِ على دينهم (الإسلام) أم لا؟.

هذا هو المرجوُّ من فضلِ الأميرِ أن يبسطَ الجوابَ في (المنار) عن هذه الأسئلةِ، وله وللأستاذ صاحب (المنار) من اللهِ الأجرُ الجزيلُ.

سنبس بورنيو الغربية — محمد بسيوني عمران

في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨هـ

جواب الأمير شكيب أرسلان

إنَّ الانحطاطَ والضعفَ اللذينِ عليهما المسلمونَ شيءٌ عامٌّ لهم في المشارقِ والمغاربِ، لم ينحصرْ في جاوة وملايو، ولا في مكانٍ آخرَ، وإنّما هو متفاوتٌ في دَرَكَاتِه، فمنه ما هو شديدُ العُمْقِ، ومنه ما هو قريبُ الغَوْرِ، ومنه ما هو عظيمُ الخطرِ، ومنه ما هو أقلُّ خطراً.

وبالإجمالِ حالةُ المسلمين الحاضرة، ولا سيّما مسلمي القرن الرابع عشر للهجرة، أو العشرين للمسيح، لا تُرضي أشدَّ الناس تحمّساً بالإسلام، وفرحاً بحزبه، فضلاً عن غيرِ الأحمسي من أهله.

تشابه الشعوب الإسلامية في الضعف:

إنَّ حالتَهم الحاضرةَ لا تُرضي، لا من جهةِ الدِّينِ، ولا مِنْ جهةِ الدُّنيا، ولا من جهةِ المادّة، ولا من [جهةِ][1] المعنى. وإنَّك لتجدُ المسلمينَ في البلادِ التي يُساكِنُهم فيها غيرُهم متأخّرين عن هؤلاء الأغيار، لا يُسامِتُونهم في شيءٍ إلاّ ما نَدَرَ، ولم أعلم من

---

(١) زيادة ليست في الأصل. (م)

المسلمينَ ممَّنْ ساكَنَهم أممٌ أخرى في هذا العصر، ولم يكونوا متأخّرين عنهم إلا بعضَ أقوامٍ منهم، وذلك كمسلمي (بوسنة) مثلاً، فإنَّهم ليسوا في سويٍّ ماديٍّ ولا معنويٍّ أدنى مِنْ سويِّ النصارى الكاثوليكيين، أو النصارى الأرثوذكسيين، الذين يُحيطونَ بهم، بل هم أعلا مستوًى من الفريقين[1].

وككثيرٍ من مسلمي روسية، الذين ليسَ المسيحيونَ الذين يُجَاوِرُونَهم أرقى منهم.

ولقد كان المسلمون في أذربيجان قبل الحرب أرقى من الطوائفِ المسيحيةِ التي تُساكِنُهم.

ولا خلافَ في أنَّ مسلمي الصين إجمالاً على تأخُّرِهم هُمْ

---

(١) كانوا أعلى مستوًى من الكاثوليكيين والأرثوذكسيين من الجهة المادية بسبب أن (٨٠) في المئة من أراضي (البوسنة) كانت مِلْكاً للمسلمين، وكان الفلاحون فيها جميعاً من الصربيين، فمنذ بضعَ عشرةَ سنةً سنَّتْ حكومةٌ بلغراد قانوناً صدَّقَهُ مجلسُ نوّابِها، نَزَعَتْ بموجبِه هذه الأملاك من أيدي مالكيها المسلمين، وسلّمتها إلى الفلاحين الصربيين، غيرَ معوِّضةٍ على المسلمين إلا ببدلٍ بَخْسٍ، فأصبحوا لا يملكونَ في البوسنة إلا (٢٥) في المئة من الأراضي، فسقطتْ أهميتُهم الماديةُ من ذلك الوقت. أمّا حالتُهم الأدبية فمرضيّةٌ إلى اليوم، لا يُقال إنّها دنيا بالقياس إلى جيرانهم. (ش).

أرقى من الصينيين البوذيين، هذا إذا كانتِ النسبةُ بين الفريقين باقيةً كما كانتْ قبلَ الحربِ العامة[1].

وفيما عدا هذه الأماكن نجدُ تأخُّرَ المسلمين عن مسامتةِ جيرانِهم عامّاً، مع تفاوتٍ في دركاتِ التأخُّرِ.

ويُقالُ: إنَّ العربَ في جزيرةِ سنغافورة هم أعظمُ ثروةً من جميع الأجناسِ التي تُساكِنُهم، حتى من الإنكليز أنفسِهم بالنسبةِ إلى العَدَدِ، ولا أعلمُ مبلغَ هذا الخبرِ مِنَ الصِّحَّةِ، ولكنَّه على فرضِ صِحَّتِه ليسَ بشيءٍ يُقَدِّمُ أو يؤخِّرُ في ميزانيةِ المسلمينَ العامّة.

ولا إنكار أنَّ في العالم الإسلامي حركةً شديدةً، ومخاضاً عظيماً شاملاً للأمورِ المادية والمعنوية، ويقظةً جديرةً بالإعجابِ، قد انتبه لها الأوروبيون، وقدَّروها قَدْرَها، ومنهم مَنْ هو متوجِّسٌ خِيفةَ مغبَّتِها، لا يخفى هذا الخوفُ من تضاعيفِ كتاباتهم، إلا أنَّ هذه الحركةَ إلى الأمام لم تصلْ بالمسلمينَ حتى اليوم إلى درجةٍ يساوونَ بها أُمَّةً من الأمم الأوروبية أو الأمريكية أو اليابان.

فبعدَ أنْ تقرَّرَ هذا وجبَ أن نبحثَ في الأسبابِ التي أوجدتْ هذا التقهقُرَ في العالمِ الإسلاميِّ بعدَ أنْ كانَ منذُ ألفِ سنةٍ

---

(١) الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م). (م)

هو الصَّدْرُ المقدّمُ، وهو السيّدُ المرهوبُ المُطاعُ بين الأممِ شرقاً وغرباً، فقبلَ أنْ نبحثَ في أسبابِ الارتقاءِ نقول:

أسبابُ ارتقاءِ المسلمينَ الماضي ترجع كلُّها إلى الإسلام:

إنَّ أسبابَ الارتقاءِ كانتْ عائدةً في مُجمَلِها إلى **الديانةِ الإسلامية**، التي كانت [قد] ظهرتْ جديداً في الجزيرة العربية، فدانَ بها قبائلُ العرب، وتحوَّلوا بهدايتها من الفُرقةِ إلى الوَحْدةِ، ومِنَ الجاهليةِ إلى المدنية، ومن القَسْوَةِ إلى الرحمة، ومن عبادةِ الأصنامِ إلى عبادةِ الواحدِ الأحدِ، وتبدَّلوا بأرواحِهم الأُولى أرواحاً جديدة، صيَّرتهم إلى ما صاروا إليه من عِزٍّ ومَنَعةٍ، ومجدٍ وعِرْفانٍ وثروةٍ، وفتحوا نصفَ كرة الأرضِ في نصفِ قرن، ولولا الخلافُ الذي عادَ فدبَّ بينهم منذُ أواخرِ خلافةِ عثمان، وفي خلافةِ علي رضي الله عنهما، لكانوا أكملوا فتحَ العالمِ، ولم يقفْ في وجههم واقفٌ.

على أنَّ تلكَ الفتوحاتِ التي فتحوها في نصفِ قرنٍ أو ثلثي قرن ـ برغمِ الحروبِ التي تسبَّبَتْ بها مشاقَّةُ معاويةَ لعليٍّ، والحروبُ التي وقعتْ بين بني أميةَ وابن الزبير ـ قد أدهشَتْ عقولَ العُقلاءِ والمؤرّخين والمفكّرين، وحَيَّرَت الفاتحينَ الكِبَارَ، وأذهلتْ (نابليون بونابرت)[1] أعظمَهم، وله تصريحٌ في ذلك

---

(١) قائد عسكري فرنسي شهير (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) لمع اسمه بعد=

نقلَهُ (لاكاس) الذي رافقَهُ إلى جزيرة (سانتة هيلانة) وغيره من المقيِّدِينَ لحوادث نابليون، المتتبّعين[1] لأقوالِه، فقد ثبتَ ثبوتاً قطعيًا من أقوالِ ذلك الفاتحِ العظيمِ وسيرتِه أيامَ كان بمصر، أنَّه كانَ مُعْجَباً بمحمّدٍ ﷺ وعُمر رضي الله عنه، وبكثيرٍ من أبطالِ الإسلام، وأنَّ نفسَه حدَّثَتْه لمّا كان بمصرَ أن يتّخذَ الإسلامَ ديناً له.

فالقرآنُ الكريم قد أنشأَ إذاً العربَ نشأةً مستأنَفَةً، وخلقَهم خلقاً جديداً، وأخرجَهم مِنْ جَزِيْرَتِهم، والسيف في إحدى اليدين، والكتاب في الأُخرى، يفتحون ويسودون، ويتمكَّنون في الأرضِ بطولِها والعرض.

ولا عبرةَ بما يُقالُ في شأنِ العربِ قبلَ الإسلام، وما يُروى من فتوحاتٍ لهم ومدنياتٍ أثيلةٍ، وما ينوَّهُ به من أخلاقٍ عِظامٍ في الجاهلية، فهذه ـ ولا جدالَ ـ قدْ كانتْ ولا تزالُ آثارُها ظاهرةً، ولا شكَّ في مدنيّة العربِ القديمةِ، وأنَّها مِنْ أقدمِ مدنيّات العالم على الإطلاقِ.

= الثورة، وقاد الحملة الفرنسية على مصر، وانهزم أمام أسوار عكا، ثم عاد إلى فرنسة ليستولي على السلطة ويصبح إمبراطوراً لفرنسة، دوَّخ أوروبة بفتوحاته، ثم هُزم في معركة واترلو عام (١٨١٥م) ونفي إلى جزيرة هيلانة، حيث قضى نحبه. (م)

(١) في الأصل: المتبعين. (م)

وممَّا يرجِّحُ أنَّ الكتابةَ قد بدأتْ عندَهم، وأنَّه لو فُرِضَ أنَّ الفينيقيينَ هم الذين اخترعوا الكتابةَ في العالم، **فالفينيقيون في الحقيقةِ أُمَّةٌ ساميةٌ عربيةٌ**، ولكنَّ دائرةَ تلك المدنيّة كانت محدودةً مقصورةً على الجزيرة وما جاورَها.

وقد أتى على العربِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ سادَهم الغرباءُ في أرضِهم، وأذلَّهم الأجانبُ في عُقْرِ دارِهم، كالفرسِ في اليمن وعمان والحيرة، وكالحبشةِ في اليمن، وكالرّومِ في أطرافِ الحجازِ ومشارفِ الشّامِ.

والحقيقةُ أنَّهم لم يستقلّوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلا بالإسلامِ، ولم تعرفهم الأممُ البعيدةُ، وتخنعْ لهم الممالكُ العِظامُ، والقياصرةُ والأكاسرةُ، ويتحدَّثُ بِصَوْلتهم الناسُ، ولم يقعدوا من التاريخِ المقعدَ الذي أحلَّهم في الصفِّ الأوّلِ من الأمم الفاتحةِ إلاّ بمحمدٍ ﷺ.

فالسببُ الذي به نهضوا وفتحوا، وسادوا وشادوا، وبلغوا هذه المبالغ كلَّها من المجدِ والرُّقيِّ، يجبُ علينا أَنْ نبحثَ عنه وننشدَه، ونحفي المسألة، ونمعنَ في النُّشدان:

أهو باقٍ في العربِ، وهم قد تأخَّروا برَغْمِ وجودِه، وتأخَّرَ معهم تلاميذُهم الذين هم سائرُ المسلمين؟.

أم قد ارتفعَ هذا السببُ من بينهم، ولم يبقَ مِنَ الإيمانِ إلا

اسمُه، ومِنَ الإسلامِ إلا رسمُه، ومن القرآنِ إلا الترنُّمُ به، دونَ العملِ بأوامرِه ونواهيهِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا كانَ في صَدْرِ الملَّةِ وعُنْجُهيَّةِ الشريعة؟.

فقدُ المسلمينَ السببَ الذي سادَ به سَلَفُهم:

إذا فحصنا عن ذلك وجدْنا أنَّ السببَ الذي به استقامَ هذا الأمرُ قد أصبحَ مفقوداً بلا نزاع، وإنْ كان بقيَ منه شيءٌ فكباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ، فلو كان اللهُ وعدَ المؤمنينَ بالعزّةِ بمجرّدِ الاسمِ دونَ الفعلِ لكان يحقُّ لنا أن نقولَ: أينَ عِزَّةُ المؤمنين؟ من قولهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]

ولو كان اللهُ قد قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. بمعنى أنَّه ينصرُهم بدونِ أدنى مزيّةٍ فيهم سوى أنَّهم يُعْلِنونَ كونَهم مسلمين، لكانَ ثمَّةَ مَحلٌّ للتَّعجُّبِ مِنْ هذا الخُذلانِ بعدَ ذلك الوعدِ الصريحِ بالنَّصر.

ولكنَّ النصوصَ التي في القرآن هي غير هذا، فاللهُ غيرُ مُخْلِفٍ وَعْدَه، والقرآنُ لم يتغيَّر، وإنَّما المسلمون همُ الذين تغيَّروا، والله تعالى أنذرَ بهذا فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فلمّا كانَ المسلمونَ قد غيَّروا ما بأنفسِهم، كانَ مِنَ العجبِ أن لا يُغيِّرَ اللهُ ما بهم، وأنْ لا يبدلَهم الذُّلَّ والضَّعَةَ، مِنْ ذلك العِزِّ

وتلكَ الرفعةِ، بل كانَ ذلك يُعَدُّ منافياً للعدلِ الإلـٰهيِّ، واللهُ عـزَّ وجلّ هو العدلُ المحضُ.

كيف ترى في أمةٍ ينصرُها اللهُ بدون عملٍ، ويفيضُ عليها الخيراتِ التي كان يفيضُها على آبائها، وهي قد قعدَتْ عن جميع العزائمِ، التي قد كانَ يقومُ بها آباؤها؟ وذلك يكونُ أيضاً مخالِفاً للحكمةِ الإلـٰهيةِ، واللهُ هو العزيزُ الحكيمُ.

ما قولُكَ في عِزَّةٍ دونَ استحقاقٍ، وفي غَلَّةٍ دونَ حَرْثٍ ولا زَرْعٍ، وفي فَوْزٍ دونَ سعيٍ ولا كَسْبٍ، وفي تأييدٍ دونَ أدنى سببٍ يوجِبُ التأييد؟!!.

لا جرمَ أنَّ هذا مما يُغرِي الناسَ بالكَسَلِ، ويحولُ بينَهم وبينَ العملِ، بلْ ممّا يخالِفُ النواميسَ التي أقامَ اللهُ الكونَ عليها، وهو ما يستوي به الحَقُّ والباطلُ، والضَّارُ والنافعُ، والموجِبُ والسَّالِبُ، وحاشا لله أَنْ يَفعلَ ذلك.

ولو أيَّدَ اللهُ مخلوقاً بدونِ عملٍ لأيَّدَ مِنْ دونِ عملٍ محمّداً رسوله ﷺ ولم يُخْرِجْهُ إلى القتالِ والنِّزالِ والنِّضالِ، واتّباعِ سُنَنِ الكونِ الطبيعيّةِ للوصولِ إلى الغايةِ.

وتصوّر أمةً لله عندَها مئة، وهي تؤدّي من المئةِ خمسـةً فقط، أتُعِدُّ نفسَها قد أدَّت ما عليها، وهي تطمَعُ في أن يكافِئَها اللهُ، كما كانَ يُكافئ أجدادَها، الذين كانوا يؤدّون المئةَ مئةً، وإن

قصَّروا عن المئةِ أدُّوا بالأقلِّ تسعينَ أو ثمانينَ منها؟ كلاّ هذا مخالِفٌ لما وَعَدَ اللهُ على [ألسنة] رسلِه، ومخالِفٌ للعقلِ والمنطقِ، ومخالِفٌ لحكمةِ التشريع، وليسَ هذا هو الشرطُ الذي شرطهُ اللهُ على المؤمنينَ، وليسَ هذا هو البيعُ الذي يستبشرُ به المؤمنون، قال اللهُ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فأينَ حالةُ المسلمينَ اليومَ من هذا الوصفِ الذي في كتابِ اللهِ؟!

وأينَ حالتُهم من سَلَفِهم الذين كانوا يتهافتون على الموتِ الأحمرِ لإحرازِ الشهادةِ، وكثيراً ما كانوا ينشدونَ الموتَ ولا يجدونَه؟! وكان فارِسُهم يكرُّ وهو يقولُ: «إنّي لأشمُّ ريحَ الجنَّة» ثم لا يزالُ يكرُّ، ويخوضُ غمراتِ الحربِ، حتى إذا استشهدَ قال: «هذا يومُ الفَرَحِ»، وإذا فاتتهُ الشهادةُ برغمِ حِرْصِهِ عليها عادَ إلى قومِهِ حزيناً كئيباً.

المقابلةُ بينَ حالَي المسلمينَ والإفرنج اليوم:

اليوم فقدَ المسلمونَ أو أكثرُهم هذه الحماسةَ التي كانت عند آبائِهم، وإنَّما تخلَّقَ بها أعداءُ الإسلام، الذين لم يوصِهِم

كتابُهم بها، فتجدُ أجنادَهم تتواردُ على حِياضِ المنايا سباقاً، وتتلقّى الأسنّةَ والحِرابَ عِناقاً، ولقد كان مبلغُ مفاداتهم بالنفائسِ، وتضحيتهم بالنفوسِ في الحرب العامّةِ فوقَ تصوُّرِ عقولِ البشر، كما يعلمُ ذلك كلُّ أحدٍ، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل، والفرنسيون فقدوا مليوناً وأربعمئة ألف قتيل، والإنكليز فقدوا ستمئةِ ألف قتيل، والطليانُ فقدوا أربعمئة وستينَ ألفَ قتيل، والروسُ هلكَ منهم ما يفوقُ الإحصاء، وهلمَّ جرا.

هذا من جهةِ النفوس، وإنكلترة بذلت سبعةَ مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسة بذلت نحو مليارين، وألمانية أنفقت ثلاثة، وإيطالية أنفقت خمسمئة مليون، وروسية أنفقت ما أوقع فيها المجاعة، التي آلت إلى الثورة، ثم إلى البلشفة، وهلم جرا.

فليقُل لي قائلٌ: أيةُ أمةٍ مسلمةٍ اليومَ تُقْدِمُ على ما أقدمَ عليه هؤلاء النصارى مِنْ بيعِ النفوس وإنفاقِ الأموال بدون حساب في سبيلِ أوطانِهم ودولِهم، حتى نعجَبَ نحنُ لماذا آتاهم اللهُ هذه النعمةَ والعَظَمةَ والثروةَ، وحرَمَ المسلمينَ اليومَ أقلَّ جزءٍ منها؟.

وقد يُقالُ: إنَّ المسلمينَ فقراء، ليس عندَهم هذه الأموال لينفقوا هذا الإنفاقَ كلّه.

فنجيبُ: بأنَّنا نوزِّعُ هذه النفقاتِ على الأوروبيين بنسبةِ

رأس المال، ولا نكلِّفُ المسلمينَ إلاّ الإنفاقَ مثلَ الأوروبيين على هذه النسبة.

فهل تسخو الأممُ الإسلاميةُ الحاضرةُ بما تسخو [به] الأممُ الأوروبية، التي منها مَنْ قَدْ أنفقَتْ في الحربِ العامة أكثرَ من نِصْفِ ثروتِها؟.

الجواب: لا، ليس في المسلمينَ اليومَ مَنْ يفعلُ ذلكَ، لا أفراداً ولا أقواماً، وندرَ في المسلمين مَنْ يُنفقُ الزكاةَ الشرعيّة.

وقد يُقالُ: إنَّ الأمّةَ التركيةَ ـ وهي أمّةٌ مسلمةٌ ـ قد أنفقَتْ كلَّ ما تقدر عليه في حربِ اليونان، ولم تقصّر عن شأوِ الأوروبيين في المفاداة بالأنفسِ والنفائس.

والجواب: نعم، قد كان ذلك، ومن التركِ مَنْ بذلَ ثُلُثَ ثروتِه، ومنهم مَنْ بذلَ نصفَ ثروتِه في هذه الحرب، ولكنَّهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفازوا، وحرَّروا أنفسَهم واستقلّوا، وارتفعوا بعدَ أنْ كانوا هَوَوْا، وعَزُّوا بعد أن كانوا ذَلّوا.

إذاً الأممُ الإسلاميةُ إذا ائتمرَت في المفاداةِ بما أمرَها به كتابُها، كما كانَ يفعلُ آباؤها، أو اقتدَتْ على الأقلِّ بما هو دأبُ الأوروبيين اليومَ؛ من بذلِ النفوسِ والنفائسِ في سبيلِ حِفْظِ بيضتِها، وذودِ المعتدينَ عنها، لم تقطفْ من ثمراتِ التضحيةِ إلا مثل ما قطفَه غيرُها، وانقلبَتْ بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفضلٍ، لم يمسسْها سوءٌ.

ولكنَّ الأممَ الإسلاميةَ تريدُ حفظَ استقلالِها بدون مفاداةٍ ولا تضحيةٍ، ولا بيع أنفسٍ، ولا مسابقةٍ إلى الموتِ، ولا مجاهدةٍ بالمالِ، وتطالبُ اللهَ بالنصرِ على غيرِ الشرطِ الذي اشترطَه في النصر، فإنَّ اللهَ سبحانه يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، ويقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ومن المعلومِ أنَّ اللهَ تعالى غيرُ محتاجٍ إلى نُصرةِ أحدٍ، وإنَّما يريدُ بنصرتِه تعالى إطاعةَ أوامرِه، واجتنابَ نواهيه، ولكنَّ المسلمين أهملوا جميعَ ما أمرَهم به كتابُهم في ذلك، أو أكثره، واعتمدوا في استحقاقِ النُّصْرَةِ على كونهم مسلمينَ موحّدينَ، وظنُّوا أنَّ هذا يُغنيهم عن الجهادِ بالأنفُسِ والأموال.

ومنهم مَن اعتمدَ على الدُّعاءِ والابتهالِ لربِّ العِزَّةِ، لأنَّه يجدُه أيسرَ عليه من القتلِ والبَذْلِ، ولو كانَ مجرَّدُ الدعاءِ يغني عن الجهادِ، لاستغنى به النبي ﷺ وصحابتُه وسَلَفُ هذه الأمة، فإنَّهم الطبقةُ التي هي أَوْلَى بأن يَسْمَعَ اللهُ دعاءَها.

ولو كانت الآمالُ تُبْلَغُ بالأدعيةِ والأذكارِ، دونَ الأعمال والآثار، لانتقضت سننُ الكونِ، وبطلَ التشريعُ، ولم يقل الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]. ولم يقل: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ولم يقل للمعتذرين عن القتال: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ

أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٩٤]، ولم يقل: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥].

لقد ظنَّ كثيرٌ من المسلمينَ أنَّهم مسلمون بمجرَّدِ الصلاةِ والصيام، وكلّ ما لا يكلِّفُهم بذلَ دمٍ ولا مالٍ، وانتظروا على ذلكَ النصرَ من اللهِ.

وليسَ الأمرُ كذلك، فإنَّ عزائمَ الإسلامِ لا تنحصِرُ في الصلاةِ والصيام، ولا في الدعاءِ والاستغفار، وكيف يقبَلُ اللهُ الدعاءَ ممن قعدوا وتخلَّفوا، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا؟!.

اعتذارُ المسلمين عن أنفسِهم وردُّه:

يقولون: ليس عندَ المسلمينَ ما عندَ الإفرنجِ من الثروةِ والسَّعَةِ لينفقوا في أعمالِ الخيرِ، وفي مساعدةِ بعضِهم بعضاً.

فنقولُ لمن يحتجُّ بهذه الحجّة: إنَّنا نرضى منهم أنْ ينفِقُوا على نسبةِ رؤوس أموالهم، كما تقدَّمَ الكلامُ عند ذكرِ الجهادِ بالمالِ، فهل المسلمونَ فاعلون؟.

إنَّنا نراهم قد محوا رسومَ الأوقافِ والمؤسساتِ الخيرية التي تركها آباؤهم، فضلاً عن كونِهم لا يتبرّعون بأموالهم الخاصّة، ولا يجرونَ مع الأوروبيين في ميدان من جهةِ التبرُّعِ لأجلِ المشروعاتِ العامّةِ، فكيفَ يطمَعُ المسلمونَ أن تكونَ لهم منزلةٌ

الأوروبيين في البسطةِ والقوةِ والسُّلطانِ، وهم مقصِّرونَ عنهم بمراحلَ في الإيثارِ والتضحيةِ؟ فإنَّ العملَ لأجلِ السلطانِ في الأرضِ، أشبَهُ بالحَرْثِ في الأرضِ، فبقدرِ ما تشتغلُ فيها هي تُعطيك، وإنَّ قصَّرتَ في العملِ قصَّرت هي في الثمر، والمسلمونَ يريدونَ سلطاناً يشبِهُ سلطانَ الأوروبيين بدون إيثارٍ ولا بذلٍ، ولا فَقدِ شيءٍ من لذائذهم، وينسَون أنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقد يقولون: إنَّنا جرّبنا البذلَ والتضحيةَ، وابتُلينا بالنقصِ من الأموالِ والأنفسِ والثَّمراتِ وصبرنا، ولم يفدنا ذلك شيئاً، وبقيَ الأوروبيون مسلَّطين علينا[1].

والجوابُ: هل يقدرونَ أن يقولوا لنا: إنَّ ما يدّعونه من البذلِ والتضحيةِ يشبِهُ شيئاً ممّا يقومُ به النصارى واليهودُ من هذا القبيل؟ أو أنَّه إذا نُسِبَ إليه تكونُ نسبتُه نسبةَ الواحدِ في المئة؟.

عندنا مثالٌ حديثُ العهدِ هو مسألةُ فلسطين: حدثَتْ وقائعُ دمويّةٌ بين العربِ واليهودِ في فلسطينَ، فأُصيبَ بها أناسٌ من الفريقين، فأخذَ اليهودُ في جميعِ أقطارِ الدُّنيا يُساعدون المصابين من يهودِ فلسطين، وأرادَ العالمُ الإسلاميُّ أن يساعدَ عربَ فلسطين

---

(١) إني أنقل هذا القول عن بعضهم لأني قد سمعته كثيراً. (ش)

كما هو طبيعي، فبلغتْ تبرُّعاتُ اليهودِ لأبناءِ ملّتهم من فلسطين (مليون) جنيه، وبلغت تبرّعاتُ المسلمين كلّها (١٣) ألف جنيه أي نحو جزء من مئة[١].

---

(١) عنيت بهذه الواقعة الفتنةَ التي جرت سنة ١٩٢٩ ميلادية، وكان مجموع ما أعانَ به العربُ إخوانهم في فلسطين ثلاثة عشر ألف جنيه لا غير، إلا أنَّ حوادثَ الدهرِ علّمت المسلمين وأيقظتهم، ونيرانُ المصائبِ والخطوبِ أحسنتْ سَبْكَهم، ففي هذه السنوات العشر الأخيرة بدؤوا يقتدون باليهود والأوروبيين في البذل، وساروا فيه على أثرهم، وإن كانوا لا يزالون في أوّل الطريق.

ولقد أحصيتُ إعانات العرب لإخوانِهم في فلسطين بين سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨م فزادت على ما كان يحصلُ من قبلُ، ولكن هذه الإعانات أثمرت ثمرها، وثبّتت أقدامَ العربِ في وجهِ الإنكليز واليهود، حتى اضطر الإنكليز إلى سوق (٣٠) ألف جندي هم في نضال مستمر من سنتين إلى الآن مع العرب، ووراءهم قوى عظيمة من البوليس واليهود المسلّحين والخائنين من العرب أنفسِهم، ومن قوة شرقيّ الأردن، ولم يتمكّنوا من إخمادِ الثورة، ولا حصلوا على طائل، وعادت الإنكليز فنكصت على أعقابها، ورضيت بعقد مؤتمر في لندرة (لندن) تحضره وفودُ الدول العربية لمساعدتها على حلّ المعضلة الفلسطينية، ورجعت عن برنامجِها الأول، وهو إعطاءُ فلسطين لليهود، راضيةً بأن يكون هؤلاء ثلث السكان، لا يزيدون على الثلث، =

فسيقولون: إنَّ المسلمينَ لا يملِكونَ مثلَ ثروةِ اليهودِ.

ونعودُ فنجيبُهم: نرضى منهم بأن ينفقوا في مساعدةِ ملّتهم على قدرِ اليهود والإفرنج بالنسبة إلى رؤوس أموالهم، ولا نطالِبُ منهم الفقراءَ، الذين لا يملكونَ ما يزيدُ على كفاية عائلاتِهم. قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ [التوبة: ٩١]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٩٣].

ونجيبُ أيضاً: إنَّه وإن كان اليهودُ أغنى بالأموالِ من المسلمين، فالمسلمون أكثر جدّاً بالعددِ، لأنَّ اليهودَ عشرون مليوناً، والمسلمين نحو من أربعمئة مليون[1]، فلو أنَّ كُلاً من

= فهذا التحوُّلُ نتيجةُ المقاومة، وهذه المقاومةُ إنّما كانت نتيجةَ البذلِ والسماحِ واستصغارِ الدنيا، ومن استصغَرَ الدنيا كَبُرَتْ لديه، ومن هانتْ عليه الحياةُ جاءتهُ الحياةُ على رجليها، سنَّة الله في خَلقِه، ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً. (ش)

(١) بعد أن ثبتَ بالإحصاء الرسمي أنَّ مسلمي الصين خمسون مليون نسمة تحقَّق أنَّ مسلمي المعمور كلَّه لا يقلّون عن أربعمئة مليون، منهم (٢٤) مليوناً من العرب في آسية، و(١٧) مليوناً من الترك في الأناضول، و(١٦) مليوناً في إيران، و(١٠) =

المسلمين تبرّعَ لفلسطين بقرشٍ واحدٍ ـ وهو الذي لا يعجزُ عنه أحدٌ في العالمِ مهما اشتدَّ فقرُه ـ لاجتمعَ من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف.

فلنترك تسعةَ أعشارِ المسلمين، ونفرض هذه الإعانة لفلسطين على عُشْرِ واحدٍ منهم، أي على (٣٥) مليون نسمة لا غير. وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نجدُهم حولَ فلسطين في لمحةِ بصرٍ، فإنَّ مسلمي مصر، وسورية، وفلسطين، والعراق، ونجد، والحجاز، واليمن، وعُمان هم (٣٥) مليوناً. ولنتقاضَ مِنْ هؤلاء أداءَ قرشٍ واحدٍ عن كلِّ جمجمةٍ، فماذا يجتمعُ لنا مِنْ ذلك؟.

الجوابُ: يجتمعُ ثلاثمئة وخمسونَ ألفَ جُنيه.

فالمسلمون قد تبرَّعوا عن هذه الأعداد كلّها بثلاثة عشر ألف جنيه، أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كلِّ نسمة من عُشْرِ عددهم!!.

أهذا ما تريدونَ أن تسمُّوه تضحية؟!

= ملايين في أفغانستان، و(٨٥) مليوناً في الهند، و(٥٦) مليوناً في جاوة، و(٢٥) مليوناً في روسية، وثلاثة ملايين في أوروبة، و(٥٠) مليوناً في الصين، ومئة مليون في إفريقية.

أَوَ بمثلِ هذا تجاهِدُونَ في سبيلِ الله بأموالِكم وأنفسِكم؟!

أَوَ هذِهِ درجةُ نجدتِكُم لإخوانِكم في الدين، وجيرانِكم في الوطن، والقائمين عنكم بالدفاعِ عن المسجدِ الأقصى، الذي هو ثالثُ الحرمين الشريفين، وأول القبلتين؟.

أفلم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؟!.

يقولون: لماذا سادتِ الأمّةُ الإنكليزيةُ هذه السيادةَ كلّها في العالم؟.

نجيبُهم: إنَّها سادت بالأخلاقِ والمبادئ الوطنيّةِ العالية.

حدَّثَني رجلٌ ثقةٌ أنّه يعرِفُ إنكليزياً ذا منصبٍ في الشرق، كان يأمرُ خادِمَه أن يشتريَ له الحوائجَ اللازمة لبيتِه يومياً مِنْ دكانِ رجلٍ إنكليزيٍّ في البلدَةِ التي هم فيها، فجاءَه الخادِمُ مرّةً بجدولِ حسابٍ وفَّر عليه به (٢٠) جنيهاً في مدة شهر. فسأله الإنكليزيُّ: كيفَ أمكنكَ هذا التوفير؟

فقال الخادم: تركنا دكانَ الإنكليزيِّ الذي كُنَّا نشتري منه، وصِرْنا نشتري من دكانِ أحدِ الأهالي مِنَ العرب.

فقال له الإنكليزيُّ: ارجع إلى دكانِ الإنكليزيِّ الذي كُنَّا نشتري منه.

فقال الخادم: أوَلَوْ كان ذلك يستلزِمُ إنفاقَ (٢٠) جنيهاً زيادةً؟

قال الإنكليزيُّ: ولو كانَ ذلك يستلزِمُ إنفاقَ (٢٠) جنيهاً زيادةً.

وسمعتُ أنَّ كثيرينَ من الإنكليز الذين في الأقطارِ لا يشترونَ شيئاً ذا قيمةٍ إلاّ مِنْ بلادِهم، ويرسلونَ إلى (لندرة)، فيوصون على كلِّ ما يحتاجونَ إليه حتى لا يذهبَ مالُهم إلى الخارج.

أفنقيسُ هذا بأعمالِ المسلمين، الذين مهما أوصيتَهم بالشراءِ من أبناءِ جلدتِهم أو أوطانِهم، وعلموا أنَّهم يقدرونَ أنْ يوفّروا في السلعةِ الواحدةِ نصفَ قرشٍ إذا أخذوها من الإفرنجي، تركوا ابنَ جلدتِهم أو ملّتهم، ورجّحوا الإفرنجي[1]؟ أفلم يكن سببُ حبوطِ مقاطعةِ العرب لليهودِ في فلسطين أشياءَ كهذه[2]؟ حرموا أنفسَهم أمضى سلاح في يدِهم، وهو المقاطعةُ في الأخذِ والعطاءِ مع اليهودِ من أجلِ فروقٍ تافهةٍ موقّتةٍ، ونسوا أنَّ الضَّرَرَ

---

(١) حتى قيل: كلّ إفرنجي برنجي، أي جيد. (م)

(٢) أما الآن فقد أصبحَ السوادُ الأعظمُ منهم يبذلون النفوسَ والنفائسَ في الدفاعِ عن وطنِهم فلسطين، وأتوا في هذهِ السبيل بما ارتفعتْ له رؤوسُ العربِ جميعاً، ولو أنَّ هذه المفاداة ظهرت منهم مِنْ أوّل الأمر ما وصلت المصيبةُ إلى هذا الحد. (ش)

الذي يُصيبُهم من الأخذِ والعطاءِ مع اليهودِ هو أعظمُ ألفَ مرّةٍ من ضررِ هاتيكَ الفروقِ الزهيدةِ.

نتائجُ إعانةِ مصرَ لمجاهدي طرابلس وبَرْقة:

وكنتُ مرّةً أشكو إلى أحدِ كبارِ المصريينَ إهمالَ إخوانِنا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة، الذين إنْ لم تجبْ عليهم نجدتُهم، قياماً بواجبِ الأُخوّةِ الإسلاميةِ والجِوارِ، وجبتْ عليهم احتياطاً من وراءِ استقلالِ مصرَ، واستقبالِ مصرَ، لأنَّه كما أنَّ وجودَ الإنكليز في السودان هو تهديدٌ دائمٌ لمصرَ، فوجودُ الطليان في برقة، هو تهديدٌ دائمٌ لها أيضاً.

فكانَ جوابُ ذلك السيد لي: لقد بذلَ المصريونَ مبالغَ وفيرةً يومَ شنَّتْ إيطالية الغارةَ على طرابلس، ولم يستفيدوا شيئاً، فإنَّ إيطالية لم تلبثْ أن أخذتْها.

فقلتُ له: إنَّ المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضةً هي دونَ شكٍّ تُرْضِي كلَّ مسلمٍ، بل ترضي كلَّ إنسانٍ يقدّرُ قَدْرَ الحميـة، ولكنَّ المبلغَ الذي تبرّعوا به يومئذٍ معلـومٌ، وهو (١٥٠) ألف جنيه.

فهل يطمع المسلمونَ في أنحاءِ المعمور أن يُنْقِذوا طرابلس من براثن إيطالية بمئة وخمسينَ ألفَ جنيه؟!

وهل هذه التضحيةُ تُقاسُ في كثيرٍ أو قليلٍ إلى التضحياتِ

التي قامت بها إيطالية بالمالِ والرّجالِ؟.

كانت إعانةُ مصرَ في الحربِ الطرابلسية (١٥٠) ألف جنيه، وأنفقتِ الدولةُ العثمانيةُ على تلك الحربِ نحو مليون جنيه، فانظروا إلى ما كان لذلك من النتائج:

النتيجـةُ الأولى: وهي أهم شيء: **حفظُ شرفِ الإسلامِ، وإفهامِ الأوروبيين أنَّ الإسلامَ لم يمتْ**، وأنَّ المسلمينَ لا يسلّمون بلدانَهم بلا حربٍ، وفي ذلـك من الفائدةِ الماديـةِ والمعنويـةِ للإسلامِ ما لا ينكرُه إلاّ كلُّ مكابِرٍ.

النتيجةُ الثانيةُ: إنَّ هذا المبلغَ الضئيلَ بالنسبةِ إلى نفقاتِ الدولِ الحربيةِ قد كانَ السببَ **في توطين الطرابلسيين أنفسِهم على المقاومةِ والمجاهدَةِ**، بما رأوا من نجدَةِ إخوانهم لهم، فكانت هذه المقاومةُ سبباً لتجشّم إيطالية المعتدية من المشاقِّ والخسائر ما هو فوقَ الوصفِ، إلى أنْ صارَ كثيرٌ من ساسةِ الطليانِ يصرّحونَ بندمِهم على هذه الغارةِ الطرابلسيّةِ.

النتيجـةُ الثالثـةُ: مهما يكن من عددِ القتلى الذين فقدَهم العربُ في هذه الحرب، فإنَّ مجموعَ قتلى الطليانِ إلى اليوم يفوقُ مجموعَ قتلى العرب أضعافاً مضاعفة.

فلقد لقيَ الطليانُ في هذه الحربِ من الأهوالِ ما لا تتَّسعُ لوصفه مقالةٌ أو رسالةٌ، وفي واقعةٍ واحدةٍ هي واقعةُ (الفويهات)

على باب بنغازي ثبت فيها (١٥٠) مجاهداً عربياً لثلاثةِ آلاف جندي طلياني من الفجر إلى غروبِ الشمس، إلى أَنْ انقرضوا جميعاً، إلا أفذاذاً أتى عليهم الليلُ، ورجعَ العدوُّ ولمّا يموتوا: وبينما كانَ العربُ في حُزنٍ عظيمٍ على مَنْ فقدوهم في تلك المعركةِ إذ جاءَهم الخبرُ البرقيُّ من الأستانة عن برقية وردت سِرّاً من برلين عن برقيةٍ رقميّةٍ جاءت من سفارةِ الألمان في رومية (روما) بأنّه سقطَ في هذه المعركةِ ألفٌ وخمسمئةِ جنديٍّ من الطليان، وأصابَ الجنونُ سبعةً من ضبّاطِهم.

وهذه وقعةٌ من خمسينَ وقعة بالأقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشاً يفوقُهم في العدد عشرين ضعفاً، وقتلوا نصفَه، أي قتلوا عشرة أضعافِهم ـ واللهُ تعالى قد قدر لهم في حال القوّة أن يغلبوا عشرةَ أضعافِهم، وفي حالِ الضَّعفِ أن يغلبوا ضعفيهم فقط، كما قال في سورة الأنفال [٦٥ ـ ٦٦]: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

النتيجةُ الرابعةُ: أنّه قد كانت نفقاتُ إيطالية في الحرب الطرابلسية في السنةِ الأولى منها أي من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٢

نحو مئة مليون جنيه، ويُظَنُّ أنَّها من عشرين سنة إلى اليوم ـ إذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة ـ قد بلغت ثلاثمئة مليون جنيه[1].

فهذا كلّه كانَ نتيجةَ تلكَ الإعاناتِ القليلة، والنفقاتِ الضئيلة التي قام بها المسلمونَ في تلك الحرب، ولكنَّ المسلمين ينتظرونَ أن تنهزمَ إيطالية ـ الدولة الكبيرة التي أهلها (٤٤) مليون نسمة، ودخلُها السنوي (٢٠٠) مليون جنيه ـ في صدمةٍ واحدة، أو في السنة الأُولى من الحرب[2]، وإن لم يتحقَّق أملهم هذا

---

(١) أما في هذا العهد فقد انقطعت المقاومةُ بالسلاح، وكان آخر من قاوم الطليان بالسلاح الشهيد والمجاهد الكبير عمر المختار رحمه الله [١٢٧٥ ـ ١٣٥٠هـ = ١٨٥٨ ـ ١٩٣١م] إلا أنَّ الطرابلسيين لا يزالون يقاومون الاستعمار الطلياني، كما يقاوم التونسيون وسائرُ المغاربة الاستعمارَ الفرنسيَّ، ومن العبثِ أن تظنَّ دولُ الاستعمارِ إخمادَ الحركاتِ الوطنية بالعسف والقهر والقتل والنفي والحبس، فكلُّ هذا لا يزيدُ المسلمينَ إلاّ عداءً، و«ما اسْتُصْلِحَ عَدُوٌّ بِمِثْلِ العَدْلِ». (ش)

(٢) أي هذا عددُها، وهذا دخلُها، وهذا إنفاقُها على الحرب.
وأمّا عصبيتُها وضراوتُها في سفكِ دماءِ المسلمين فحسبُ المسلمِ الذي لم يُفْسِدْهُ التفرنج والإلحاد أنْ يقرأَ النشيدَ الطليانيَّ، الذي ننقلُ ترجمتَه عن (جريدة الفتح) نقلاً عن (جريدة الشرق) عدد (٥٤٣) وهو: =

. . . . . .

= «إنَّ مِنْ أعظمِ الآلامِ لشابّ في العشرين من عمرِه أن لا يُحارِبَ في سبيلِ وطنِه، مع دوامِ القتالِ في طرابلس، والراية المثلثة الألوان، والموسيقى الحربية، تنبّهان النفسَ المقدامة.

يا أمّاه! أتمِّي صلاتكِ ولا تبكي، بل اضحكي وتأمّلي.

ألا تعلمين أنّ إيطالية تدعوني، وأنا ذاهب إلى (طرابلس) فرحاً مسروراً، لأبذلَ دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة (كذا) ولأحارِبَ الديانةَ الإسلاميةَ التي تجيزُ البنات الأبكار للسلطان.

سأقاتِلُ بكلِّ قوّتي لمحو القرآن (كذا).

ليسَ بأهلٍ للمجدِ مَنْ لم يمتْ إيطالياً حقاً.

تحمّسي أيتها الوالدة، تذكّري (كاروني) التي جادت بأولادِها في سبيلِ وطنِها.

يا أمّاه! أنا مسافر، ألا تعلمين أنّ على الأمواجِ الزرقاءِ الصافية من بحرِنا ستُلْقِي سفائنُنا المراسيَ؟

أنا ذاهبٌ إلى طرابلس مسروراً، لأنَّ رايتَنا المثلثةَ الألوان تدعوني، وذلك القطرُ تحتَ ظِلِّها.

لا تموتي لأننا في طريق الحياة، وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك، ولكن اذهبي في كلِّ مساء، وزوري المقبرة، ونسائم الأصيل تحمِلُ إلى طرابلس وداعك، الذي يأبى الحداد على قبرِ فلذة كبدك، وإنْ سألكِ أحدٌ عن عدمِ حدادِك عليَّ فأجيبيه: إنَّه ماتَ في محاربةِ الإسلام.

الطبل يقرعُ يا أمّاه! أنا ذاهبٌ أيضاً، ألا تسمعينَ هزَجَ الحربِ، دعيني أعانقكِ وأذهب!. (ر) =

انقطعَ منهم كلُّ رجاء، وبطلت كلُّ حركة، وأصابَ بعضَهم اليأسُ، الذي هو مُرادِفٌ للكفرِ بصريحِ الذكرِ الحكيم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ولنضربْ مثلاً ثالثاً، ونمسك بعده عن ضربِ الأمثال، لأنَّها لا تعدُّ ولا تُحصى:

قامَ أهلُ الريفِ المغربيِّ في وجهِ الدولة الإسبانية مدّة بضع سنين، إلى أن تغلَّبوا عليها، وطردوا جيوشَها، بعدَ أن أبادوا منهم في واقعةٍ واحدةٍ (٢٦) ألفَ جندي، وغنموا (١٧٠) مدفعاً، مع أنَّ جميعَ أهلِ الريفِ بقضّهم وقضيضهم ثمانمئةِ ألف نسمة، وعدد أهالي إسبانية (٢٢) مليون نسمة، وأراضي الريف أكثرُها قاحِلٌ، والأهالي فيه فقراء، يعيشون من كسبِ أيديهم، لقد قاموا بعملٍ أدهشَ أهلَ الأرضِ بالطولِ والعَرْض.

فلو كانَ أهلُ الريفِ نصارى لانثالت[1] عليهم الملايين من الجنيهات من كلِّ الجهات، إما بطريقةٍ خفيّةٍ، وإما بواسطةِ جمعية الصليبِ الأحمر في سبيل مداواةِ جرحاهم.

= الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلاّ ما تجيزه لغيره من المسلمين، وهو تزوّج البكر والثيّب، ولكنّ الإفرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراءَ على الإسلام، وتبيحُ لهم مدنيّتُهم الزِّنا، حتى أفسدوا كلَّ قطرٍ دخلوه ببغاياهم؛ لا سيّما الطليان منهم. (ر).

(١) انثالت: انصبَّت. (م)

فليقل لنا المسلمون: كم جنيهاً قدَّموا للريف في ذلك الوقت؟.

ثم تألّبَ الفرنسيس مع الإسبانيول، وحشدوا لحرب الريفيين (٣٠٠) ألف مقاتِل، وحصروا الريفَ من كلِّ جانبٍ، من البرِّ والبحرِ، وكانت طياراتهم القاذفةُ بالديناميت على قرى الريفيين تُخْصَى بالمئات لا بالعشرات، ولم تكفِ طياراتُ الفرنسيس والإسبانيول حتى جاءَ سِرْبُ طياراتٍ أميركية من نيويورك نجدةً لفرنسة وإسبانية النصرانيتين على المسلمين لأنّهم مسلمون[1].

هذا كلُّه والمسلمونَ ينظرونَ إلى حربِ الريف مكتوفي الأيدي، ولبثوا مكتوفي الأيدي مدّة سنة، وأخيراً نهضَ منهم أفرادٌ لجمعِ شيءٍ من أجل جرحى الريف، ولأجلِ بعثِ الحميّةِ في الناسِ لم يَكتفِ محرر هذه السطور بالكتابة، بل تبرَّع بأربعةِ جنيهاتٍ لأجلِ القدوة، فماذا كان مجموعُ تلك الإعاناتِ من كلِّ العالم الإسلامي؟

الجواب (١٥٠٠) جنيه لا غير، فهل من خذلان بين المسلمين يفوق هذا الخذلان؟!.

---

(١) لأنّ ملَّة الكفر واحدة. (م)

خيانةُ بعضِ المسلمينَ لدينِهم ووطنِهم بخدمة الأجانب، واعتذارُهم الباطلُ:

ويا ليتَ المسلمين وقفوا عند هذا الحدِّ في خذلان الريفيين، بل قامت منهم فئاتٌ يقاتلونَ الريفيين بأشدَّ مما يقاتلونَ به الأجانب، وتألَّبت على محمد بن عبد الكريم[1] قبائلُ وافرةُ العددِ، شديدةُ البأسِ، مالؤوا الفرنسيس والإسبانيول على أبناءِ ملّتهم ووطنهم، تزلُّفاً إلى الفرنسيس والإسبانيول، وابتغاء الحظوة لديهم.

وقد جرى مثلُ ذلك عندنا في سورية يومَ الثورةِ على فرنسة، وجرى في بلادٍ إسلاميّةٍ كثيرة[2]، أفبمثلِ هذه الأعمالِ

---

(١) هو الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الريفي (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣م) زعيم الثورة الريفية المعروفة باسمه في شماليّ المغرب. (م)

(٢) والآن عساكرُ شرقيِّ الأردن، وهم من العرب، يقاتلون بكلِّ شدَّةٍ مجاهدي فلسطين، الذين هم إخوانُهم في النَّسَب والمذهب، وهم يعلمونَ أنَّ هؤلاء المجاهدين إنما يذودونَ عن حياضِ العروبة والإسلام، ويجودون بنفوسِهم لأجل استحياءِ قومِهم، واستبقاءِ وطنهم للعرب، وأنَّه لولا هؤلاء المجاهدون لتسلّم اليهودُ جميعَ فلسطين مِنْ زمنٍ طويلٍ تحتَ ظلِّ حراب الإنكليز، فبينما دماء المجاهدين تسيلُ لأجلِ حِفْظِ فلسطين للعرب، تجدُ=

يطالِبُ أخونا الشيخ بسيوني عمران ربَّه بما وعدَ تعالى به مِنْ جَعْلِ العِزَّةِ للمؤمنين؟!!.

وإذا سألتَ هؤلاء المسلمين الممالئين للعدوِّ على إخوانِهم: كيف تفعلون مثلَ هذا، وأنتم تعلمونَ أنَّه مخالفٌ للدين وللشرف، وللفتوة وللمروءة، وللمصلحة وللسياسة؟.

أجابوك: كيف نصنعُ؟! فإنَّ الأجانبَ انتدبونا، ولو لم نفعل لبطشوا بنا، فاضطررنا إلى القتالِ في صفوفهم خوفاً منهم، ونسوا قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وكلامُ مثل هؤلاءِ في الاعتذارِ غيرُ صحيحٍ، فإنَّ الأجانبَ قد ندبوا كثيراً من المسلمين إلى خياناتٍ كهذه، فلم يجيبوهم، ولم تنقضَّ عليهم السماءُ مِنْ فوقِهم، ولا خُسِفَتْ بهم الأرضُ من تحتِهم.

ثم إنّه إنْ كان الأجانبُ المحتلّون لبلادِ المسلمينَ قد

= دماءَ عساكرَ عربية في شرقِ الأردن تسيل لأجل إخراجِ بلادِ فلسطين وشرق الأردن نفسِها بعدَ فلسطين من أيد العرب.
فهل يبلغُ العدوُّ من عدوِّه أكثرَ ممّا يبلغُ العربُ من أنفسِهم؟ لا والله. (ش).

أصبحوا يغضبون على المسلمين، الذين لا يلبّون دعوتَهم إلى خيانةِ قومِهم، فإنَّما كان ذلك من أجلِ كثيرين من المسلمين، كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومةِ إخوانِهم، ويقومون بها بكلِّ نشاطٍ ومناصحةٍ، ويبدون كلَّ أمانةٍ لهم في أثناءِ تلك الخيانة، **ولولا هذا التبرُّعُ بالخيانة، والتسرُّعُ إلى مظاهرَةِ الأجنبي على ابن الملّة، لما استأسدَ الأجنبيُّ، وصار يتحكَّمُ في المسلمينَ هذا التحكّم الفاحش، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم، ومتقضى مصلحةِ دنياهم من أجلِ مصلحتِه، بل قام يحملهم على الموتِ لأجلِ الموت**[1].

فإنَّ الموتَ موتان:

أحدُهما: **الموتُ لأجلِ الحياة**، وهو الموتُ الذي حثَّ عليه القرآن الكريم المؤمنينَ، إذا مدَّ العدوُّ يدَه إليهم، وهو الموتُ الذي قال عنه الشاعر العربي:

تَأخَّرْتُ أسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ
لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

وهو الموتُ الذي يموتُه الإفرنسي لأجل حياةِ فرنسة، والألماني لأجل حياة ألمانية، والإنكليزي في سبيل بريطانية

---

(١) ها هم زعماء العرب والمسلمين اليوم أطوع لعدوّهم من بنانه، فما أشبه اليوم بالبارحة. (م)

العظمى ـ وهلمّ جرا ـ ويجدُه على نفسِه واجباً، لا يتأخَّرُ عن أدائِهِ طرفةَ عينٍ.

وأما الموتُ الثاني، فهو الموتُ لأجلِ استمرارِ الموت، وهو الذي يموتُه المسلمونَ في خدمةِ الدول التي استولَتْ على بلادهم. وذلك أنّهم يموتون حتى ينصروها على أعدائها، كما يموتُ المغربيُّ مثلاً حتَّى تنتصرَ فرنسة على ألمانية مثلاً. ويموتُ الهنديُّ حتى تتغلَّبَ إنكلترة على أيِّ عدوٍّ لها، ويموتُ التَّتَريُّ في سبيلِ ظفرِ روسية، والحالُ أنّه بانتصارِ فرنسة على أعدائها تزدادُ في المغربِ غطرسةً وظلماً، وابتزازاً لأملاكِ المسلمين، وهضماً لحقوقهم، وذلك كما حصَلَ بعدَ الحرب العامة، إذ ازدادَ طمعُ الفرنسيس في أهلِ المغرب، وحدَّثوا أنفسَهم بتنصيرِ البربر، ليدمجوهم في الشعب الفرنسي، ويأمنوا على مستقبلِ المغرب، الذي صاروا يطلقونَ عليه لقب (إفريقية الإفرنسية).

وبالاختصار يموتُ المغربيُّ على ضفاف الرين، أو في سورية، حتى يزدادَ موتاً في المغرب، لأنَّ كلَّ طائلةٍ تفوزُ بها فرنسة في الخارجِ هي زيادةٌ في قهرِ المغربيِّ وإهانتِه وإذلالِه، مما لا سبيلَ للمناكرة فيه، ومما قد ثبتَ بالتجربةِ. وكذلك موتُ الهنديِّ في نصرة إنكلترة، هو تطويلٌ في أَجَلِ عبوديّةِ الهند. وكذلك موتُ التّتريِّ في خدمةِ روسية لا عاقبةَ له سوى ازديادِ قهر الروسِ للتتر، وهلمّ جرا.

وهذا الموتُ لأجلِ الموتِ هو ما كان بخطٍّ منحنٍ كما يُقال، أي باعتبار النتيجةِ، ولكنّه هناك موتٌ لأجلِ الموتِ مباشرةً من دون واسطة، وهو عندما يموتُ المغربيُّ في قتالِ أخيه المغربي، الذي قامَ يحاوِلُ أن يُزَحْزِحَ شيئاً من النير الإفرنسيِّ الذي كان يدقُّ عنقه، وإن لم يدقّ عنقه بتاتاً استحياهُ حياةً هي أشبَهُ بالموتِ منها بالحياة.

ولو انحصرَتْ هذه الأمورُ في العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم، وقلنا: إنّهم لا يدرون الكتاب ولا السنّة، ولا السياسة الدنيوية، ولا الأحوال العصرية، وإنَّهم إنَّما يُساقون كما تُساقُ بهيمةُ الأنعامِ إلى الذّبحِ.

ولكن الأنكى هو خيانةُ الخواص، مثال ذلك: الوزير المقري، الذي هو أشدُّ تعصُّباً لقضيةِ رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم[1].

---

(١) ويؤكّدون أنَّه كلَّما أرادت فرنسة تحت تأثير سخط العالم الإسلامي أنْ تعدِلَ عن الظهير البربري المقصود به إخراجُ البربرِ من الإسلام بتاتاً، جاءَ هذا المقري، يحذّرها عاقبةَ الرّجوع إلى الصواب، ويقول لها: إنَّ أهالي المغرب يعدُّون هذا منها نكوصاً وضعفاً، وبعد ذلك لا يمكنُها أن تثبّت أقدامها في شمالي إفريقية، فالمقري إذاً هو أكبرُ مشجّعٍ للحكومةِ الإفرنسية على=

ومثلُه البغداديُّ، باشا فاس، الذي طرح نحو مئة شخص من شبّان فاس، وجلدَهم بالسياط، لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين، وأخذوا يردّدون دعاء: «يا لطيف الطف بنا فيما جرت به المقادر، ولا تفرّق بيننا وبين إخواننا البرابر» ومفتي فاس الذي أفتى بأنَّ إلغاء الشرع الإسلامي مِنْ بينِ البرابِرِ ليسَ بإخراجٍ للبربرِ من الإسلام.. وهلمّ جرا.

وكلٌّ مِنْ هؤلاء الخونة المارقين ـ أخزاهم الله ـ قد بلغَ مِنَ الكِبَرِ عِتيّـاً، وانتهى من أموالِ الأُمّة شبعاً وريّاً، وهو لا يزالُ حريصاً على الزُّلفى إلى فرنسة، وإثباتِ صداقتِه لها، ولو بِضَياعِ دينِه ودنياه، حتّى تبقي عليه منصبَه وحظوظَه في هذه البقيّة الباقية من حياته التاعسة[1].

وليسَ واحداً مِنْ هؤلاءِ ولا مَنْ في ضَرْبهم في المغرب إلا وهو مطّلع على نيّات فرنسة وعلى مراميها من جهةِ هذا النظامِ

= المضيُّ في سياستها البربرية، التي ترمي إلى تنصيرِ البربـرِ، وإدماجهم في الأمة الإفرنسية. (ش)

(١) الغريب في هذا أنَّ أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادَهم كلَّها للأجنبي بثمنٍ خسيسٍ، هو جزءٌ منها لا من مالِ الأجنبي، ولو أخلصوا في صَدِّهِ عنها لكان لهم منها أكثر مما يعطيهم الأجنبيُّ منها، ثم يكونُ باقيها لأولادِهم وأهليهم وإخوانِهم في الدين مع العزّ والشرف. (ر)

الجديدِ لأمّةِ البربر.

وليس فيهم إلاّ مَنْ هو عارِفٌ بوجودِ جيشٍ من القسوس والرهبان والراهبات، يجوسُ خلالَ بلادِ البربر، ويبني الكنائسَ، ويصيدُ اللّقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان[1].

وليسَ فيهم إلا مَنْ هو عالِمٌ بمنعِ فرنسة فقهاءَ الإسلامِ والوعّاظَ من التّجوالِ بين البربر، حتى ترتفعَ الحواجزُ أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية[2].

وقد يكون (المقري) و(البغدادي) هذان هما في مقدّمة الموقّعين على الأوامرِ بمنعِ علماءِ الإسلام وحَمَلَةِ القرآن من

---

(١) ومما هو جارٍ في المغربِ أنَّ الأذانَ لصلاةِ الفجرِ ممنوعٌ في كثيرٍ من القرى التي يقطنها مستعمرة الفرنسيس، وذلك لأنّه قد يعكّرُ عليهم صفوَ رقادِهم صباحاً. (ش)

(٢) وقد منعوا الوعّاظَ في شهرِ رمضان من الذهاب إلى بلادِ البربر، وكانوا يحبسون مَن يخالِفُ هذا الأمرَ، وقد أقفلوا مئات من الكتاتيب القرآنية في المغرب، ومئاتٍ مِنْ مثلها في الجزائر، وأغلقوا دار الحديثِ في تلمسان، واحتجَّت على ذلك جمعية علماء المسلمين في الجزائر، فما سمعوا لها كلاماً، وأصرَّ بعضُ رجالِ الدين الإسلامي في الجزائر على تعليم القرآن للأحداث، فحاكموهم، وحكموا عليهم بالسجن أربعةَ أشهرٍ، بحجّة أنهم خالفوا الأوامر الصادرة، وهلم جرا. (ش)

الدخولِ إلى قرى البربر.

وقد يكونُ (المقري) هذا هو الذي خصَّصَ المبلغَ من مالِ المخزنِ لجريدةِ (مراكش الكاثوليكية) التي تطعنُ في الإسلام، وتقذِفُ محمداً عليه الصلاةُ والسلام، ولدينا كثيرٌ من أعدادِها التي تتضمَّن هذه المطاعن.

وبعدَ هذا فمن يدري؟ فقد يكون المقري مصلِّياً وصائماً، وبيده سُبْحَةٌ يقرأُ عليها أوراداً!!.

ومَنْ يدري؟ فقد يكونُ البغداديُّ السيِّئُ الذكرِ ممن يتمسَّحون بالقبور، ويستغيثون بالأولياء، ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب!!.

وأما المفتي، فهو المفتي، فلا حاجةَ إلى تثبيت كونه يصلّي الخمس، ويصومُ ويتهجَّد ويُوْتِرُ ويتنفَّل... إلخ.

وقد مضى علينا نحنُ في سورية شيءٌ من هذا لأوائل عهد الاحتلال، لكن لم تكنْ خيانةُ هؤلاء المعمّمين في قضيةٍ دينيةٍ مباشرةٍ، فقد اقترحتْ عليهم فرنسة أن يمضوا برقيةً إلى جمعيةِ الأمم، ينكرونَ بها عملَ المؤتمر السوري الفلسطيني، المطالب باستقلالِ سورية وفلسطين، فأمضاها منهم عمائمُ مكورة، وطيالِسُ محبرة مجرّرة، ورقابٌ غليظةٌ، وبطونٌ عظيمةٌ، وإن لم أقل الآن: أخزاهم اللهُ، أخشى عتابَ إخواننا المغاربة، الذين يرونني

خصصتُ بهذا الدعاءِ صَدْرَهم الأعظم، ومفتيهم الأكبر، وأعفيتُ معمَّمِي سورية، فلذلك يقضي العدلُ بأن نقول: أخزاهم الله أجمعين، أخزى اللهُ الذين منهم في المشرق والذين منهم في المغرب، ممن يوقّعون على اقتراحاتِ الأجانب المضرّة بالدين والوطن[1].

ولعلَّ الأخ الشيخ (بسيوني عمران) يقول: إنَّ هؤلاء أفرادٌ قلائل، فلا يجوزُ أن نجعلَ الأمّة الإسلاميةَ مسؤولةً عن مخازيهم وموبقاتهم.

والجواب على ذلك: إنَّ الظلمَ يخصُّ، والبلاءُ يعمُّ، كما لا يخفى، ولكنّي لا أسلِّم أنَّ هؤلاء أفرادٌ قلائل، وأنَّ الأمةَ غيرُ مسؤولة! إذ لو كان وراء هؤلاء أمةٌ يخشونها ما تجاسروا على الاتّجار بدينها بعد الاتّجارِ بدنياها، بل كانوا لو اقترحَ عليهم الفرنسيسُ اقتراحاً مُضِرّاً بملّتهم وأمّتهم، ولم يقدروا على ردِّه، اعتزلوا مناصبَهم، ولزِموا بيوتهم.

---

(١) على أنَّهم في السنة التالية أرادوهم على إمضاء بياناتٍ خبيثةٍ كهذه، فامتنعوا، واحتجّوا لدى الفرنسيس بأنَّ عملَهم ذاك قد عرَّضهم للإهانة، واستوجبَ مقتَ الشعب السوري لهم، فهم لن يكرِّروا تلك الخيانة. وهذا دليلٌ على أنَّ الأمّةَ تقدرُ متى شاءَتْ أنْ تُقَوِّمَ أَوَدَ هؤلاء المشايخ، وأنَّ الخائنين الخادمينَ لدول الاستعمار ليسَ لهم علاجٌ إلا الخوف على جلودِهم. (ش)

وكان الفرنسيسُ كلَّفوا بالعملِ غيرَهم، فإذا أبى هذا الخَلَفُ ما أباهُ السَّلَفُ مرّةً بعدَ مرةٍ علمَ الفرنسيسُ أنْ لا فائدةَ في الإصرارِ، فعدَلُوا عن دَسِيستِهم البربرية وما أشبهها، ولكنَّهم مصرّون عليها بسبب استظهارِهم بأُناسٍ ممن يزعمونَ أنّهم مسلمون، فهم يهدِمونَ الإسلامَ بمعاوِلَ في أيدي أبنائه، ويقولونَ: لسنا مِنْ هذا الأمرِ في قبيلٍ ولا دَبيرٍ[1].

أفلا ترى كيفَ قالوا عن الظهير البربري: إنَّه قد أصدرَه السلطانُ وحكومةُ المخزن[2]؟.

---

(١) وجميع الدول المستعمرة المتسلّطة على ممالك الإسلام طريقتُها الاستظهارُ على المسلمين بالمسلمين، وقضية شرقيّ الأردن والخونة من عرب فلسطين من أنصعِ الشواهدِ على هذه الحالة.

(٢) أفلا ترى كيفَ أنَّهم قتلوا في مكناسة الزيتون (٣٥) مسلماً وجرحوا (٦٠) من أجل مظاهرةٍ غيرِ مسلّحةٍ قام بها الأهالي احتجاجاً على سلبِ السلطةِ مياهَ بساتينِهم من أجل إعطائِها إلى مستعمرةِ الفرنسيس، وزعموا أنَّ فعلهم هذا باسم السلطان.
ألم ترَ أنَّهم ألغوا الحزب الوطني المغربي، وحكموا على ألفين وخمسمئة شاب منهم بالحبس سنة وسنتين، ونفوا علالاً الفاسي إلى بلاد خط الاستواء، ونفوا نخبةَ رجالاتِ المغربِ إلى الصحراء، وضَربوا ضرباً مبرحاً عشراتٍ من الأدباء، منهم: الأستاذ محمد المقري، الذي مات تحت الضرب، وكل هذا=

أفهذا هو الإسلامُ الذي يُناشِدُ اللهَ الشيخُ بسيوني عمران بتأييدِ أهلِه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

ولا شكَّ أنَّ المسلمينَ الذينَ يبلغونَ هذه الدرجاتِ من الانحطاط، وتتركهم الأمّة الإسلامية وشأنَهم، يلعبونَ بحقوقها: يستحقّون للإسلام التمحيص الذي هو فيه[1]، فإنَّما سمحَ اللهُ بأنْ يستوليَ الأجانبُ على ديارِ المسلمين، ويجعلوهم خولاً، ويغتصبوا جميعَ حقوقِهم تعليماً لهم وتهذيباً، وتصفيةً وتطهيراً،

= باسم السلطان، والسلطان لا يُبدي ولا يعيد، ولا يقدر أن يدفعَ عن رعيتِه التي مرجعها إلى الجنرال (نوغيس) واضع أساسِ المشروع البربريِّ الأثيم. (ش)

(١) هكذا في الأصل، ومعنى (يستحقون) هنا: يستوجبون على قول الفارابي، واللام في الإسلام للتقوية، والمُرادُ بها المسلمون. والمعنى: يستوجبون بجرائمهم تمحيصَ المسلمين في جملتهم، ليميز الله الخبيثَ من الطيِّب. ويفسّره ما بعدَه، وهو مستنبطٌ من قوله تعالى في سياقِ غزوة أحد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]. فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المأثور المؤثّر في الجزء الرابع من تفسير المنار. (ر)

قلت: ذكر الإسلام وأراد أهله، وهذا مجاز جارٍ على سنن العرب في كلامهم. (م)

كما يصفّى الذَّهَبُ الإبريزُ بالنار، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

لقد أصبحَ الفسادُ إلى حدٍّ أنَّ أكبرَ أعداءِ المسلمين هم المسلمون، وأنَّ المسلمَ إذا أرادَ أنْ يخدمَ مِلَّتَه أو وطنَه، قد يخشى أن يبوحَ بالسِّرِّ من ذلك لأخيه، إذ يحتمل أن يذهبَ هذا إلى الأجانب المحتلّين، فيقدّم لهم بحقِّ أخيه الوشايةَ التي يرجو بها بعضَ الزُّلفى، وقد يكون أملُه بها فارغاً[1].

كلمة الملك ابن سعود في تخاذل المسلمين وتعاديهم:

ولله دَرُّ الملك ابن سعود[2] حيثُ يقولُ: ما أخشى على

---

(١) لم يخلُ بلدٌ من بلدانِ الإسلامِ من هؤلاء الخائنين، الذين تجعلُهم دولُ الاستعمار مطايا لها في الاستيلاء على تلك البلدان، وهم يسعون بين أيديها في كلِّ دسيسةٍ، ويدلونها على عوراتِ المسلمين، وما ينكرون أنّهم بهذا العمل يخونون أنفسهم، وما يشعرون أنّهم أشبه بمنٍ يصعدُ على الشجرة، ويشرعُ بقطعِ جذعِها من تحتِه، فيسقط هو عنها بما كسبتْ يداه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]. (ش)

(٢) الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود: مؤسس المملكة=

المسلمين إلا من المسلمين، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين[1]. وهو كلامٌ أصابَ كبدَ الصواب، فإنَّه ما مِنْ فَتْحٍ فتحَه الأجانبُ من بلادِ المسلمين إلا [بجيشٍ] كان نصفُه أو قسمٌ منه على أيدي أُناسٍ من المسلمين، منهم مَنْ تجسَّسَ للأجانب على قومِه، ومِنْهم مَنْ بَثَّ لهم الدعاية بين قومه، ومنهم مَنْ سَلَّ لهم السيفَ في وجهِ قومه، وأسال في خدمتهم دمَ قومِه[2].

فأينَ إسلامُهم وإيمانُهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

= العربية السعودية (١٢٩٣ ـ ١٣٧٣هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م) وقد تحدَّث الأمير عن مناقب الملك عبد العزيز في رحلته الحجازية المسمَّاة (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) وهي قيد الطبع بتحقيقي. (م)

(١) وقال في محفلٍ حافلٍ بحجّاج الأقطار (وقد طالبه مصريٌّ أزهريٌّ بمحاربةِ الإنكليزِ والفرنسيس المعتدين على المسلمين، ذاكراً عداوتهم لهم): الإنكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا، لأنَّه لا يجمعنا بهم جنسٌ ولا دينٌ، ولا لغةٌ ولا مصلحةٌ، ولكنَّ المصيبةَ التي لا عُذرَ لأحدٍ فيها أنَّ المسلمينَ أصبحوا أعداءَ أنفسهم، وأنا واللهِ لا أخافُ الأجانبَ، وإنما أخافُ المسلمينَ، فلو حاربتُ الإنكليز لما حاربوني إلا بجيشٍ من المسلمين. (ر)

(٢) وهذا ما جرى ويجري اليوم في أفغانستان والعراق وفلسطين (م)

وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

أفَبِمِثْلِ هذا تكونُ طاعةُ اللهِ ورسولِه ﷺ؟.

أم بمثلِهِ تكونُ أخوَّةُ الإيمانِ وولايتُه وولايةُ أهلِه؟.

أَوَ لمثل هؤلاء يعدُّ اللهُ العزَّ والنصرَ والتمكينَ في الأرض، وهم سعاةٌ بين أيدي الأجانب على ملّتِهم ووطنِهم وقومِهم؟ كلَّما عاتبَهم الإنسانُ على خيانةٍ اعتذروا بعدمِ إمكانِ المقاومة، أو بـاتّقاءِ ظلمِ الأجنبي، أو بـارتكابِ أخفّ الضرريـن؟.

وجميعُ أعذارِهم لا تتكئ على شيءٍ من الحقِّ، ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملّتَهم بسيوفِهم، فإنْ لم يستطيعوا فبأقلامهم، فإن لم يستطيعوا فبألْسِنَتِهم، فإنْ لم يستطيعوا فَبِقُلوبِهم[1]، فَأَبَوْا إلاَّ أنْ يكونوا بطانةً للأجانبِ على قومِهم، وأَبَوْا إلا أنْ يكونوا روَّاداً لهم على بلادِهم، وأَبَوْا إلا أن يكونوا مطايا للأجانبِ على

---

(١) إشارة إلى حديث: «مَنْ رأى مِنكُم مُنكَراً فليُغيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يَسْتَطِع فَبِلِسَانِه، فإنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِقَلْبِه، وذلك أضعفُ الإيمان» رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن كلّهم، وهذا في وجوب تغيير المنكراتِ يفعلُها المسلمُ، فماذا يُقالُ في مقاومةِ هَدْمِ الإسلام من أساسِه. (ر)

أوطانِهم. وتراهم مع ذلك وافرين، ناعمي البالِ، متمتِّعينَ بالهناءِ وصفاءِ العيش، وهم يأكلونَ ممّا باعوا من تراثِ المسلمينَ، وممَّا فجَّروا من دماءِ المسلمين، وينامون مستريحين، مثل هؤلاءِ ليسَ لهم وجدانٌ يعذِّبُهم من الداخل، ولا نجدُ من المسلمينَ مَنْ يجرؤُ أن يعذِّبَهم من الخارج[1].

لم نكنْ لِنُطْلِقَ الكلامَ إطلاقاً على العالمِ الإسلاميِّ في هذا الموضوع، فإنَّ الأمةَ الأفغانيةَ مثلاً لا يمكِنُ أحداً أن يحطبَ فيها في حُبِّ الأجانبِ عَلناً ويبقى حياً، والنجديّون لا يوجدُ فيهم مَنْ يجرؤُ أن يُمالِئَ الأجانِبَ على قومِه، والمصريونَ قد ارتقتْ تربيتُهم السياسيّةُ كثيراً عن ذي قبل، فأصبحتْ مجاهَرَةُ أحدِهم بالميلِ للأجنبي، أو تفضيلِ حُكْمِ الأجنبيِّ خطراً عليه، فأمَّا في سائر بلادِ الإسلامِ فمَنْ شاءَ من المسلمين أن يخلعَ الرّسَنَ، ويجاهِرَ بالعصيانِ لعدوِّ دينِه وبلدِه فلا يخشى شرّاً، ولا يحاذر قلقاً ولا أرقاً.

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

---

(١) أمَّا في فلسطين، فقد تجرَّأَ المجاهدون أخيراً على تعذيب الخائنين، ولقيَ كثيرٌ مِنْ هؤلاءِ جزاءَهم الأَوْفى، وجاءَ الوقتُ الذي عرفَ فيه خائنُ قومِه أنّه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، فعسى أن يكونَ في ذلكَ عِظَةٌ وعِبرةٌ لسائرِ العالم الإسلامي. (ش)

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]؟!.

حاشا لله تعالى أَنْ يكونَ عنى بهؤلاءِ المسلمين الذين يخونون مِلَّتَهم، ويسعَوْنَ بينَ يدي أعدائِها، ويُناصِبون إخوانهم العداوة ابتغاءَ مرضاةِ الأجانب، والحصولِ على دنيا زائلةٍ، وحطامٍ فانٍ، كيف وقد قرنَ الإيمانَ بلازمه، وهو عمل الصالحات! بئسما شَرَوْا[1] به أنفسَهم.

وكذلك لا يعني الله بهؤلاءِ المسلمينَ الذين إنْ لم يكونوا خامروا[2] على قومِهم، وسَعَوْا بين أيدي الأجانبِ في خراب أمّتِهم، وأوطؤوا مناكبَهم لركوبِ الغريبِ الطامح، فإنَّهم اكتفوا من الإسلامِ بالركوعِ والسّجودِ، والأورادِ والأذكارِ، وإطالةِ السُّبْحَةِ والتلوُّمِ[3] في السجدةِ، وظنُّوا أنَّ هذا هو الإسلامُ.

ولو كانَ هذا كافياً في إسلامِ المرءِ وفوزِه في الدنيا والأخرى، لما كانَ القرآنُ ملآنَ بالتحريضِ على الجهادِ، والإيثارِ على النفسِ، والصِّدْقِ والصّبرِ، ونجدَةِ المؤمنِ لأخيه، والعدلِ والإحسانِ،

---

(١) شروا: باعوا. (م)

(٢) خامروا: خادعوا. (م)

(٣) التلوّم: المكث والتطويل. (م)

وجميعِ مكارِمِ الأخلاقِ.

ولو كانَ هذا كافياً لأجل التحقُّقِ بالإسلام لما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

أَفَيَقْدِرُ أَخونا الشيخ بسيوني عمران أو غيرُه أن يقولَ: إنَّ المسلمينَ اليومَ ـ إلاّ النادر الأندر؛ والكبريت الأحمر ـ يفضّلون اللهَ ورسولَه على آبائِهم وإخوانِهم وأزواجِهم وتجارتِهم وأموالِهم ومساكنِهم، أو يؤْثِرونَ حُبَّ اللهِ ورسولِه ـ وإنما حُبُّ اللهِ ورسولِه إقامةُ الإسلام ـ على الجزءِ اليسيرِ منْ أموالٍ اقترفوها، وتجارةٍ يخشونَ كسادها؟.

الموازنـةُ بين المسلمينَ والنصارى في البذلِ لنشـرِ الدين:

لنعمل هذه التجربة، فبضدِّها تتبيَّنُ الأشياء.

لنفرضْ أنَّ مسألةَ تنصيرِ البربـرِ دخلتْ في طـورِ النّجاحِ، وانتدبَ البابا الكاثوليكيين الذين في العالم، لبذلِ الأموالِ اللازمةِ لهذا التحويل الذي تتوخَّاهُ فرنسة في البربرِ من دينِ الإسلام إلى دين النصرانية، فكم مليوناً تظنُّ مِنَ الجنيهات يدرُّ على المبشِّرين

والرهبان والراهبات لبناءِ الكنائسِ، والمدارسِ، والملاجئ، والمستشفياتِ، ومراكزِ الأسقفيات، وما أشبه ذلك، لإتمام هذا العملِ الذي تضمُّ به الكثلكةُ ثمانية ملايين من البربر إلى الأربعمئة مليون كاثوليكي الذين في العالم؟ لا شكَّ أنَّ الجوابَ يكون: عِدَّةُ ملايين تُجْمَعُ في بضعةِ أشهرٍ.

فـإنْ قيلَ للبروتستانتيين: تعالَوْا فقد أذنّا لكم في تنصيرِ البربر، فابذلـوا في هذه السبيلِ ما أمكنكم، فإنَّها تدرُّ حينئذٍ الملايينِ بِقَدْرِ ضعفي ما يدرُّ من الكاثوليكيين، وفي مدّةٍ أقصرَ من المدّةِ التي يُجْمَعُ فيها المالُ الذي يجودُ به هؤلاء.

فلنقلْ للمسلمينَ: إنَّ البربر صاروا على شفا الخروجِ من الإسلامِ، وإنَّ الأُسَّ في هذا الصبوءِ[1] عن دينِ الإسلامِ هو الجهلُ، فعلينا أَنْ نُرسِلَ إليهم عُلماء ووعَّاظاً، ليتفقّهوا في الدين، وأن نبنيَ لهم المساجدَ، والمدارسَ، والكتاتيبَ، والملاجئ، إلى غير ذلك من الوسائل، التي تمسِكُ بحجزاتِهم[2] عن مفارقةِ الإسلامِ والمسلمين، فكم تظنُّ المبلغَ الذي يجودُ به المسلمونَ بعد اللَّتَيَّا والتي[3] لهذا العمل؟ لا أظنُّ أنَّهم يجودونَ

---

(١) صَبَـأَ: خرج من دين إلى دين. (م)
(٢) تُمْسِكُ بحُجُزَاتِهم: تعصِمُهم. (م)
(٣) (اللَّتيا) و(الَّتي): كناية عن الشدة. (م)

بما يتجاوزُ جزءاً من مئةٍ ممّا يبذلُه الكاثوليك أو البروتستانت[1].

فهذه هي حميّـة المسيحية على دينهم، وهذه هي حميّـة المسلمين.

ومِنَ النَّـاسِ مَنْ يسـألُ عن أسبابِ انحطاطِ المسلمينَ، وقصورِهم عن مبـاراةِ سـواهم، ولو تأمَّلَ في هذه الفروق في النهضة والحميّة لوجدَ عندَها الجوابَ الكافي.

ومن أغربِ الأُمورِ أنْ نَرى الأوروبيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعدَ هذا كلِّه يتَّهمون المسلمينَ بالتعصُّبِ الدينيّ، وينبزونهم بلقبه، ويَتَحِلون لأنفسِهم التساهُلَ في الدين! إنَّ هذا

---

(١) شاع أنَّ المنبوذين من الهنودِ يريدون فراق مذهب الهنادك، وأن منهم من شرح الله صدره للإسلام، فأرسل الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر وفداً من علماء الشريعة إلى الهند، ليتحقق هل ثمة أمل في هداية المنبوذين، أم ذاك نفخٌ في غير ضرم، وعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها خبرَ إرسالِ هذه البعثة الأزهرية إلى الهند، ولم تتحرك همـة واحد منهم إلى تخصيص ما يـوازي القطمير لأجل هداية هؤلاء المنبوذين، الذين يزيدُ عددهم على ستين مليوناً. هذا بينما المبالغ التي يجمعها المسيحيون في كل عام لأجل تغذية التبشير المسـيحي في آسـية وإفريقيـة تقدّر بعشـرين إلى ثلاثين مليون جنيه!! فهل تطمع هذه الأمـة أن تجاري تلك الأمة، وبينهما كل هذا الفرق؟؟!!. (ش)

واللهِ لَعَجَبٌ عُجَابٌ.

وها أنذا الآن في كتابتي هذه التي معناها الدفاعُ لا التجاوز، والأستاذُ الأكبرُ صاحبُ المنار[1]، و(عبد الحميد بك سعيد) رئيسُ جمعيّةِ الشبانِ المسلمين وغيرنا من المدافعين عن حقِّ الإسلام، والرجالِ الذين يبغونَ منعَ الاعتداءِ على الإسلام، وينادون المسلمين لينتبهوا للخطر المحدِقِ بهم؛ متَّهمونَ بالتعصُّبِ الدينيّ، ومنبوزونَ بهذه الكلمة، لا بينَ غيرِ المسلمينَ فقط، بل بينَ (المسلمين الجغرافيين)[2] أيضاً ـ أعني الذين يتباهونَ بأنَّ سياستَهم (لا دينية)[3] وطالما صرَّحوا بأنَّهم لا يقيمونَ للدّينِ وزناً، وطالما تزلَّفوا إلى المسيحيين، بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الإسلامي، كما يدافعُ زيدٌ وعمرو.. وهؤلاءِ فئةٌ معروفةٌ يَعْرِفُهم الناسُ، وهم يعرفونَ أنفسهم.

ولو فكَّر المسيحيونَ في شأنِهم لعلموا أنَّهم ليسوا على شيءٍ، وأنَّهم لا يستحقّون الاحترامَ منهم، لأنَّ الذي يتزلَّفُ إلى

---

(١) السيد محمد رشيد رضا. (م)

(٢) هذا الاسم الذي وفق إليه أمير البيان صادق كل الصدق في هؤلاء، الذين يحملون أسماء إسلامية، وينتمون إلى أُسَرٍ إسلامية، ويعيشون في مدنٍ إسلامية، لكنّهم ليسوا من الإسلام في شيء. (م)

(٣) وتسمَّى الآن تضليلاً (علمانية) والعلم منها براء. (م)

الناسِ بمثلِ هذه الطرق حريٌّ بأنْ لا يكونَ أهلاً للثقةِ ولا للكرامةِ، وما يزيِّنُ المرءَ شيءٌ مثلُ الاستقامةِ واستواءِ الباطنِ والظاهرِ.

فالمسلمُ إذاً لا يخلُصُ من لقب (متعصّب) إلا إذا سمعَ أنَّ الفرنسيس يحاولون تنصيرَ البربر، فمرّ بذلك كأنْ لمْ يسمعْ شيئاً، وإلا إذا سمع أنَّ الهولنديين نصّروا مئة ألف ـ وقد زعمَ أحدُ نوّاب البرلمانِ الهولندي أنَّهم فازوا بتنصيرِ مليون مسلم من مسلمي جاوة ـ وهزَّ كتفَه قائلاً: أنا لا يهمّني أكان الجاويُّ مُسلماً أم مسيحياً.. هنالك (المسلم) يصيرُ (راقياً) ويُعدُّ (عصرياً) ويصيرُ محبوباً ويُقالُ فيه كلُّ خير!!.

وأمّا الأوروبيُّ فله أن يبذلَ القناطيرَ المقنطرة على بثِّ الدّعايةِ المسيحيةِ بين المسلمين، وله أن يحميها بالمدافعِ والطيارات والدبابات، وله أن يَحُوْلَ بين المسلمينَ ودينِهم بالذاتِ وبالواسطة، وله أنْ يدسَّ كلَّ دسيسةٍ ممكنةٍ لهدمِ الإسلامِ في بلادِ الإسلامِ، وليس عليه حَرَجٌ في ذلك، ولا يسلبُهُ هذا العملُ صفةَ (راقٍ) و(متمدّنٍ) و(عصريّ) وأغربُ من هذا أنَّه لا يسلبه نعتَ (مدني) و(لا ديني) و(متساهل).

وهؤلاء (المسلمون الجغرافيون) برغم هذه الشواهدِ الباهرةِ للأعين، وبرغم ما عملتْه جمهوريةُ فرنسة (اللادينية) في قضيةِ البربرِ لمآربَ دينيةٍ كاثوليكية، وبرغمِ حمايةِ هولندة

لمبشّري الإنجيل في جاوة، وبرغمِ قرارِ الحكومةِ البلجيكيـة رسـمياً إكمالَ تنصيرِ أهلِ الكونغو[1]، وبـرغمِ منعِ الإنكليـزِ في أوغندة وفي دار السـلام ـ وكذا السودان ـ من بثِّ الدعاية الإسلامية بين الزنوج، وبرغمِ أمورٍ كثيرةٍ لا يسعُنا الآنَ شرحُها، لا يزالونَ يخدعونَ المسلمينَ قائلين لهم: إنَّ أوروبة رفستِ الدِّينَ برجلِها، وصارتْ على خِطَّةٍ لا دينيةٍ، وبذلك قد اتَّسَقَ لها الرقيُّ ونجحَتْ، ونحنُ لن نفلحَ ما دُمنا سائرين على خطّةٍ إسلامية[2].

قد قام ببثِّ هذه السفسطةِ أُناسٌ في تركية، ووجدوا ممّن

---

(١) أهل الكونغو (١٢) مليوناً من النفوس، كانوا جميعَهم فتيشيين، فلمَّا استولى البلجيكيون على الكونغو قرَّروا تنصيرَهم، ورأيتُ من عِدَّةِ سنواتٍ برنامجَ حكومة بلجيكة، فإذا من جملة أركانه تنصير أهل الكونغو، وبالفعل تنصَّرَ من زنوج الكونغو نحو من مليون ونصف إلى الآن، ولما كان المسلمون قد دخلوا إلى الكونغو من مدّةٍ طويلةٍ، فأقبل الأهالي هناك على الإسلام، حتى بلغ عدد المسلمين في الكونغو (١٥٠) ألف نسمة، خشيتْ بلجيكة انتشارَ الإسلام في المستعمرة، وصارتْ تعارِضُ نموَّه فيها، وتطرد المسلمين، وتضيق عليهم، ولم تبالِ بما في ذلك من الخلل بمبدأ الحرية الدينية، ولا سمعت لوم لائم. (ش)

(٢) وقد صدقوا، لكن بمعنى أننا لن نفلحَ ما دمنا على هذه الخطة التي نكذِبُ بتسميتها إسلامية، وإننا إنما نفلحُ إذا قمنا بحقوق إسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم أو أشد. (ر)

تلقّاها بالقبول عدداً كبيراً، وترى أُناساً في مصرَ والشامِ والعراقِ وفارسَ يقولونَ بها، ويكابرون في المحسوسِ ولا يُبالون، لأنَّهم يجدون على كلِّ الأحوالِ من الأغرارِ مَنْ يصدِّقهم، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* * *

أهم أسباب تأخر المسلمين

الجهل والعلم الناقص:

مِنْ أعظمِ أسبابِ تأخُرِ المسلمينَ **الجهل**، الذي يجعلُ فيهم مَنْ لا يميّزُ بين الخمرِ والخلِّ، فيتقبَّلُ السفسطةَ قضيةً مسلمةً، ولا يعرف أن يردَّ عليها.

ومن أعظمِ أسبابِ تأخُر المسلمين **العلم الناقص**، الذي هو أشدُّ خطراً من الجهلِ البسيط، لأنَّ الجاهلَ إذا قيَّضَ اللهُ له مُرْشِداً عالِماً أطاعَه، ولم يتفلسف عليه، فأمَّا صاحِبُ العلمِ الناقصِ فهو لا يدري، ولا يقتنع بأنَّه لا يدري، وكما قيل: «ابتلاؤُكم بمجنونٍ خيرٌ من ابتلائكم بنصفِ مجنون». أقول: «ابتلاؤُكم بجاهلٍ، خيرٌ من ابتلائكم بشبهِ عالِمٍ».

فساد الأخلاق ولاسيما [فساد] الأمراء والعلماء:

ومن أعظمِ أسبابِ تأخُرِ المسلمين فسادُ الأخلاقِ، بفقدِ الفضائل التي حثَّ عليها القرآن، والعزائم التي حملَ عليها سلفُ هذه الأمّـة، وبها أدركـوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في

تكوين الأمم فوق المعارف، ولله دَرُّ شوقي[1] إذ قال:

وَإِنَّمَـا الأُمَـمُ الأَخْـلاقُ مَـا بَقِيَـتْ
فـإِنْ هُـمُ ذَهَبَـتْ أَخْـلاقُهُـم ذَهَبُـوا

ومن أكبرِ عواملِ تقهقُرِ المسلمينَ فسادُ أخلاقِ أُمرائهم بنوعٍ خاص، وظنُّ هؤلاء - إلا مَنْ رَحِمَ ربُّك - أنَّ الأمَّةَ خُلِقَتْ لهم، وأنَّ لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رَسَخَ فيهم هذا الفكرُ، حتى إذا حاولَ محاوِلٌ أن يقيمَهم على الجادّة، بطشوا به عبرةً لغيرِه.

وجاءَ العلماءُ المتزلّفون لأولئك الأمراء، المتقلّبون في نعمائِهم، الضاربون بالملاعِقِ في حلوائهم، وأفتوا لهم بجوازِ قتلِ ذلك الناصح، بحجَّةِ أنّه شقَّ عصا الطاعة، وخرج عن الجماعة.

ولقد عَهِدَ الإسلامُ إلى العلماء بتقويمِ أَوَدِ الأمراء، وكانوا قديماً في الدول الإسلاميةِ الفاضلةِ بمثابةِ المجالسِ النيابيةِ في هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسدّدون خطوات الملك،

---

(١) أحمد شوقي: (١٢٨٥ - ١٣٥١ = ١٨٦٨ - ١٩٣٢م) أمير الشعراء، وبه قالت مصر: هذا شعري وهذا أدبي، ولأمير البيان كتاب بعنوان (شوقي وصداقة أربعين عاماً). (م)

ويرفعون أصواتَهم عندَ طُغيان الدولة، ويهيبون بالخليفة فَمَنْ بعدَه إلى الصواب.

وهكذا كانت تستقيمُ الأمور، لأنَّ أكثر أولئك العلماء كانوا متحقّقين بالزّهدِ، مُتحلّين بالورع، متخلّين عن حظوظِ الدنيا، لا يهمُّهم أغَضِبَ الملكُ الظالمُ الجَبَّارُ أم رضيَ؟ فكان الخلائفُ والملوكُ يرهبونهم، ويخشَوْنَ مخالفتهم، لما يعلمونَ من انقيادِ العامّةِ لهم، واعتقادِ الأمةِ إمامتَهم.

إلاَّ أنَّه بمرورِ الأيامِ خلَفَ مِنْ بعدِ هؤلاءِ خَلْفٌ اتّخذوا العلمَ مهنةً للعيش، وجعلوا الدينَ مصيدةً للدنيا، فسوّغوا للفاسقين من الأمراء أشنعَ موبقاتهم، وأباحوا لهم باسمِ الدِّينِ خَرْقَ حدودِ الدِّين، هذا والعامَّةُ المساكين مخدوعونَ بعَظَمَةِ عمائمِ هؤلاءِ العلماء، وعُلُوِّ مناصبِهم، يظنُّونَ فتياهم صحيحةً، وآراءهم موافقةً للشريعة، والفسادُ بذلك يعظمُ، ومصالحُ الأمةِ تذهبُ، والإسلامُ يتقهقرُ، والعدوُّ يعلو ويتنمَّر، وكلَّ هذا إثمُه في رِقابِ هؤلاءِ العلماء[1].

---

(١) وفَّينا هذه المسألةَ حقَّها في (المنار) وأهمه مقالة في ٩/ ٣٥٧ عنوانها: (حال المسلمين في العالمين، ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين) أنحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في نصيحة الملوك والأمراء، ويليها آثارٌ عن السلف في ذلك في عدة أجزاء من هذا المجلد. (ر)

الجبن والهلع:

ومن أعظمِ عواملِ تقهقرِ المسلمين **الجُبْنُ والهلعُ**، بعد أنْ كانوا أشهرَ الأمم في الشجاعةِ واحتقارِ الموت، يقومُ واحدُهم للعشرة، وربّما للمئة من غيرِهم، فالآنَ أصبحوا ـ إلا بعض قبائل منهم ـ يهابون الموت، الذي لا يجتمع خوفُه مع الإسلامِ في قلبٍ واحدٍ.

ومن الغريبِ أنَّ الإفرنجَ المعتدينَ لا يهابونَ الموتَ في اعتدائِهم هيبةَ المسلمينَ إياه في دفاعهم، وأنَّ المسلمينَ يرون الغايات البعيدة التي يبلغُها الإفرنج في استحقارِ الحياة، والتهافتِ على الهَلَكـةِ في سبيلِ قوميتهم ووطنهم، ولا تأخذُهم من ذلك الغَيْرَةُ، ولا يقولون: نحنُ أَوْلَىٰ من هؤلاءِ باستحقارِ الحياةِ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

اليأس والقنوط:

وقد انضمَّ إلى الجُبنِ والهلع اللذين أصابا المسلمين **اليأسُ والقنوطُ من رحمةِ الله**، فمنهم فئاتٌ قد وقرَ في أنفسِهم أنَّ الإفرنجَ هم الأعلوْن على كلِّ حالٍ[1]، وأنَّه لا سبيلَ لمغالبتِهم بوجهٍ من

---

(١) والله يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم=

الوجوه، وأنَّ كلَّ مقاومةٍ عبثٌ، وأنَّ كلَّ مناهضةٍ خَرَقٌ في الرأي، ولم يـزلْ هذا التهيُّبُ يزدادُ ويتخمَّرُ في صدورِ المسلمين أمام الأوروبيين، إلى أن صارَ هؤلاءِ يُنْصَرُونَ بالرُّعب، وصارَ الأقلُّ منهم يقومون للأكثـر من المسـلمين، وهذا بعكـسِ ما كانَ في العصرِ الأوّلِ:

يَرَىٰ الجُبَنَاءُ أنَّ الجُبْنَ حَزْمٌ وَتِلْكَ خَدِيْعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ[1]

نسيان المسلمين ماضيهم المجيد:

نسيَ المسلمونَ الأيَّامَ السالفة، التي كان فيها العشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) إلى (فراكسيمة) من سواحل فرنسـة، ويسـتولونَ على جبلٍ هناك، ويبنونَ به حصناً، ويتزايدُ عددُهم حتى يصيروا مئةَ رجل، فيؤسّسونَ هناكَ إمارةً تعصِفُ ريحُها بجنوبي فرنسـة وشـمالي إيطالية، وتهادِنُها ملوكُ تلـك النواحي، وتخطِبُ ولاءها، وتستولي على رؤوسِ جبال الألب، وعلى المعابرِ التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وإيطالية، لا سيّما معبر (سان برنار) الشهير، وتضطر جميعُ قوافل الإفرنجِ أن تؤدّي للعرب المكوسَ لأجل المرور.

تتقدَّمُ هذه الدولـةُ العربيـةُ الصغيرةُ في بـلادِ (البيـامون)

= ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي، انظر ديوانه ص(٢١٦). (م)

مسافاتٍ بعيدة، إلى أن تبلغَ سويسـرة، وبحيرة (كونستانزة) في قلبِ أوروبة، وتضمّ القسـم العالي من سويسـرة إلى أملاكِها، وتبقى خمساً وتسعين سنةً مستوليةً على هذه الديار، إلى أن تتألَّبَ الأممُ الإفرنجيـة عليها، ولا تـزالُ تناجِزُها إلى أن استأصلَتْها، وكانت تلـك العصابـةُ العربيـةُ يومَ انقرضَتْ لا تزيـدُ على ألفِ وخمسمئةِ رجل[1].

شبهاتُ الجهلاءِ الجبناءِ وردُّها:

من السخفاءِ مَنْ يقول: نعم، قد كان ذلك، لكنْ قبلَ أن يخترعَ الإفرنْجُ آلات القتال الحديثة، وقبلَ المدافعِ والدباباتِ والطيّارات، وقبل أن يصيرَ الإفرنج إلى ما صاروا إليهِ من القوّة المبنيّةِ على العلم.

وهذا القول هو منتهى السخفِ والسّفَهِ والحماقةِ، فإنَّ لكلِّ عصرٍ عِلْماً وصناعةً ومدنيّةً تشاكِلُه، وقد كانتْ في القرون الوسطى علومٌ تشاكِلُها، كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر. وأمورُ الخلقِ كلُّها نسبيةٌ، ولقد كانت في العصرِ الذي

---

(١) يجدُ القارئ تفاصيلَ هذه الغزوات في كتابنا (غزوات العرب في سويسرة وجنوبي فرنسة وشـمالي إيطالية وجزائـر البحر المتوسط) المطبوع من خمس سنوات، ط. عيسى البابي الحلبي بمصر. (ش)

نتكلَّمُ عنه آلاتُ قتالٍ، ومنجنيقاتٌ، ودباباتٌ، ونيرانٌ مركبةٌ تركيباً مجهولاً اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافعُ والرَّشاشاتُ وقنابرُ[1] الديناميت، وما أشبهَ ذلك في هذه الأيامِ.

على أنَّه ليست الدبَّابات والطيّارات والرشاشات هي التي تبعثُ العزائمَ، وتوقِدُ نيرانَ الحميّة في صدور البشر، بل الحميّةُ والعزيمةُ والنجدةُ هي التي تأتي بالطيّاراتِ والدبَّابات والقنابر. وما هذه إلا موادّ صماء، لا فرقَ بينها وبين أي حجر، فالمادّةُ لا تقدِرُ أن تعملَ شيئاً من نفسِها، وإنَّما الذي يعملُ هو الروحُ، فإذا هبَّت أرواحُ البشرِ، وتحرَّكت عزائمهم، فعند ذلك تجدُ الدبَّابات، والطيَّارات، والرشَّاشات، والغوّاصات، وكلّ أداةِ قتالٍ ونزالٍ على طرف الثُّمام[2].

يقولون: إلا أنَّ هذا ينبغي له العلم الحديث، وهذا العلمُ مفقودٌ عند المسلمين، فلذلك أمكنَ الإفرنج ما لم يمكنهم.

والجواب: إنَّ العلمَ الحديث أيضاً يتوقَّفُ على الفكرة والعزيمة، ومتى وجدت هاتان وجدَ العِلْمُ الحديث، ووجدت الصناعة الحديثة، أفلا ترى أنَّ اليابان إلى حدِّ سنة (١٨٦٨ م) كانوا

---

(١) قنابر: قنابل. (م)

(٢) طرف الثُّمام (بالثاء المثلثة المضمومة): ما كان هين المتناول. (م)

أمةً كسائرِ الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلمّا أرادوا اللحاقَ بـالأمم العزيزة، تعلّمـوا علومَ الأوروبيين، وصنعـوا صناعاتهم، واتّسَقَ لهم ذلك في خمسين سنة، وكلُّ أمةٍ من أممِ الإسلامِ تريدُ أنْ تنهضَ، وتلحقَ بالأُمم العزيزة، يمكنُها ذلك، وتبقى مسـلمةً، ومتمسّكةً بدينها، كما أنَّ اليابانيين تعلّموا علومَ الأوروبيين كلها، وضارعـوهم، ولم يقصّروا في شـيءٍ عنهم، ولبثوا يابانيين، ولبثوا متمسّكين بدينهم وأوضاعهم.

وأيضاً فمتى أرادتْ أمةٌ مسلمةٌ أدواتِ أو أسلحةً حديثةً ولم تجدْها؟ إنَّ مِلاكَ الأمرِ هو الإرادةُ، فمتى وُجِدَتِ الإرادةُ وجدَ الشيءُ المرادُ.

فلو أنَّ أمـةً من أممِ الإسـلامِ أرادتْ أن تتسلّحَ لوجدتِ السلاحَ الحديثَ اللازمَ بأنواعِه وأشكاله من ثاني يوم، ولكنَّ اقتناءَ السلاح ينبغي له سخاءٌ بالأموال، وهم لا يريدون أن يبذلوا، ولا أن يقتدوا بالإفرنج واليابان في البذل، بل يريدونَ النُّصرةَ من دونِ سلاحٍ وعتادٍ، أو السلاح والعتاد من دون بذلِ أموالٍ.

وإذا تغلّبَ العدوُّ عليهم مِنْ بعدِ ذلك صاحوا قائلين: أين المواعيدُ التي وعدنا إيّاها القرآن في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، كأنَّ القرآنَ ضَمِنَ للمؤمنين النصرَ من دون عمل ولا كسب، ولا جهاد بالأموالِ والأنفس، بل بمجرَّد قولنا: إنّنا مسلمون، أو بمجرّدِ الدُّعاءِ والتسبيح، وأغربُ من

ذلك بمجرَّدِ الاستغاثةِ بالأولياء.

فأصبحَ الكثيرُ من المسلمين، وهم عُزَّلٌ من السلاح الحديث، وهم غيرُ مجهّزين بالعلم اللازم لاستعماله، لا يقومون للقليل من الإفرنج المسلَّحين المجهّزين، وصاروا إذا التقى الجمعانِ تدورُ الدائرةُ في أغلبِ الأحيانِ على المسلمين. فتوالى هذا الأمرُ عليهم مدّةً طويلةً، إلى أن فقدوا كلَّ ثقةٍ بنفوسهم، واستولى عليهم القنوطُ، ودبَّ فيهمُ الرُّعبُ، وألقَوْا بأنفسِهم إلى العدوِّ، وبعد أن كانوا مسلمين، صاروا مستسلمين، وقد ذُهِلوا عن قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠].

ونسوا أنَّه لا يجوزُ أن يتطرَّقَ اليأسُ إلى قلبِ أحدٍ لا عقلاً ولا شرعاً، ولاسيّما المسلمُ الذي يخبِرُه دينُه بأنَّ اليأسَ هو الكفرُ بعينه، وغفلوا عن قولِه تعالى في سَلَفِهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٣].

فتجدُهم إذا استنهضتَهم لمعاونةِ قومٍ منهم يقاتلون دولةً أجنبية، تريد لتمحوهم، كان أولُ جوابٍ لهم: أيةُ فائدةٍ مِنْ بذلِ أموالِنا في هذا السبيلِ، وتلك الدولةُ غالبةٌ لا محالة؟.

ولو تأمَّلوا لوجدوا أنَّ الاستسلامَ لا يزيدُهم إلا ويلاً، ولا يزيدُ العدوَّ إلا استبداداً وجبروتاً: سنّة الله في خلقه.

ولو فكّروا قليلاً لرأوا أنَّ هذا الشُّحَّ بالمالِ على إخوانِهم الذين في مواطن الجهادِ، لم يكن توفيراً، وإنما كانَ هو الفقرُ بعينه، لأنَّ الأمَّةَ المستضعفةَ لا تعودُ حُرّةً في تجارتِها واقتصادِيّاتها، بل يمتصُّ العدوُّ الغالبُ عليها كلَّ ما فيه علالةُ رطوبةٍ في أرضها، ولا يتركُ للأمّةِ المستضعفةِ إلا عظاماً يتمشّونها، من قبيل (قوت لا يموت) وكثيراً ما تحصلُ مساغِبُ، ويموتونَ جوعاً، كما يقعُ كثيراً في جزائر الغرب والهند وغيرهما، وترى المجاعات واقعة في الهند، ولا يموت منها ولا إنكليزي [واحد]، وتراها تشتدُّ في الجزائر ولا يموتُ بها إلا المسلم[1].

---

(١) ضَنُّ المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي شلَّ حركتهم السياسية، وفَتَّ في عضد قوميتهم، إلى أن صارت الأمم الغالبة على أمرهم لا تحسبُ لهم أدنى حساب، ولو كانت تحسب لهم حساباً ما كان الفرنسيس انتزعوا منهم أملاكهم في الجزائر حتى صار (٧٥) في المئة منها مِلكاً خالصاً للفرنسيس، وصار ثلث أراضي تونس مِلكاً لخمسين ألف إفرنسي، مع أنَّ الأهالي هم مليونان ونصف مليون مسلم، يملكون الثلثين لا أكثر، وأيضاً لما كانت فرنسة ابتزّت أهالي المغرب الأقصى ثمانمئة ألف هكتار، وسلّمتها للمستعمرين الإفرنسيين، ولما كانت فرنسة تنفِقُ ثلاثةَ أرباعَ ميزانية المغرب المالية على (١٩٠)=

. . . . . .

= ألف إفرنسي، وتنفق الربع الباقي على مسلمي المغرب، مع أنهم سبعة ملايين نسمة، ومع أنّ (٨٠) في المئة من ميزانية المغرب هي من أموال المسلمين، كما أثبتنا ذلك بالأرقام، نقلاً عن جريدة الحماية الرسمية، التي لا يقدِرُ الفرنسيس أن يكابِروا فيها، وهي ميزانيةُ عدّةِ سنين، لا سنةٍ واحدةٍ، وقد نقلنا تلك الميزانيات كلّها عن جريدة الحماية الرسمية المطبوعة في الرباط إلى مجلتنا الأمة العربية (La nation Arabe) ودعونا الناسَ إلى تأمّل هذا الحَيْفِ الفظيعِ الواقعِ على المسلمين، الذين يتمتع الإفرنسيُّ الواحدُ من ميزانيتهم أكثر مما يتمتّع به ستون مسلماً.

وأغربُ من ذلك أنّ الواحدَ من يهودِ المغرب، فضلاً عن الفرنسيس، يستفيدُ من الميزانيّة المغربيّة أكثرَ من أربعين مسلماً، وأغربَ منه أنّه من هذه الميزانية ـ التي أربعةُ أخماسِها من جيوبِ المسلمين ـ يأخذُ المبشّرون والقسوسُ دعاةُ النصرانيّة مئاتِ ألوفٍ من الفرنكات لأجلِ بثِّ المسيحيةِ بينَ البربرِ المسلمين، وهذا على نسق إعطاء مبشّري النصرانية في السودان المصري إعاناتٍ من أموال المسلمين، فلولا هوانُ المسلمينَ على دولِ الاستعمار، وكون هذه لا تقيمُ لهم وزناً ما كانوا يستخفّون بهم إلى هذا الحدّ الأقصى، ولا كان عندَ الفرنسيس الأربعون مسلماً بيهوديّ واحد، ولا الستون مسلماً بإفرنسي واحد.

ولقد تحدّيناهم مراراً أن يجيبونا عن هذا الظلم الفاحش فما =

وما السببُ في ذلك إلاّ أنَّ الأجانبَ قد استأثروا بخيراتِ البلادِ، ولم يتركوا للمسلمينَ إلاّ الفقر فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل الأموال لمساعدةِ إخوانِهم بعدم وجودِها، وهذا صحيحٌ إلى حدٍّ محدود، وذلك أنّهم بخلوا بها في الأوّل، فجنوا مِنْ بُخْلِهم على الجهادِ الذُّلَّ والخنوعَ أولاً، والفقرَ والجوعَ ثانياً، فإنَّ من سننِ اللهِ في أرضِهِ أنَّ الذلَّ يردفُه الفقر، وأنَّ العزَّ يردفُه الثراءُ، والمثلُ العربيُّ يقول: «مَنْ عَزَّ بَزَّ»، والشاعر العربي الإيادي[1] يقول:

= أجابوا بغير الطعن والقذف والتهمة لنا بعداوة فرنسة، كأنّ الإنسانَ لا يمكنُ أن يكونَ صديقاً لفرنسة إلا إذا أهدر في سبيلها جميعَ حقوقِ قومه، وهذا من أغرب الغرائب.
ولو تأمّلوا قليلاً لعلموا أنَّ نُصحَنا لهم بإنصاف المسلمين هو نصحٌ عائدٌ إلى مصلحتهم، وأنَّ العدوَّ لا يثيرُ عليهم باستجلابِ قلوبِ المسلمينَ أبداً، وإنما يريدُها [حرباً] حاميةً بين الفريقين إلى ما شاء الله. (ش)

(١) هو لقيط بن يعمر، شاعر جاهلي مقلّ، كان كاتباً عند كسرى (سابور ذي الأكتاف) وكانت إياد غلبوا على سواد العراق، وقتلوا مَنْ كان به من الفرس، فلمَّا بلغ خبرهم سابور غضب وتوعَّد، فكتب لقيط إلى قومِه هذه القصيدة، يحذِّرهم فيها ما يبيّته لهم كسرى، ومطلعها:
يـا دارُ عمـرةُ من محتلِّها الجَرَعـا
هـاجـت لـيَ الهـمَّ والأحـزانَ والـوَجَعـا=

لا تَـذْخِـرُوا المَـالَ لِـلأَعْـدَاءِ إنَّهُـمُ
إنْ يَظْهَـرُوا يَـأْخُـذُوكُـمْ والتِّلادَ مَعـا
هَيْهـاتَ لا خَيْـرَ فـي مَـالٍ وَفـي نِعَـمٍ
قَـد اخْتَفَظْتُـمْ بِهَـا إنْ أَنْفُكُـمْ جُـدِعَـا

والمتنبي[1] يقول:

فَـلاَ مَجْدَ في الدُّنْيَـا لِمَنْ قَـلَّ مَالُـهُ
وَلاَ مَـالَ فـي الـدُّنيـا لِمَـن قَـلَّ مَجْـدُهُ

فالمسلمونَ عزَّ عليهم المالُ ففقدوه، وعزَّتْ عليهم الحياةُ ففقدوها، وأبى اللهُ إلا تصديقَ كلامِ النبيِّ الموحى إليه ﷺ حيثُ يقولُ: «يُوْشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ [من كلِّ أُفق] كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى القِصَاعِ» قالوا: أَوَ مِنْ قِلَّةٍ فِينَا يَوْمَئِذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «لا، ولَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السيلِ، يُجعلُ الوهنُ في قُلُوبِكُم، ويُنْزَعُ الرُّعبُ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ، مِنْ حُبِّكُم الدُّنْيَا وكَرَاهِيَتِكُمُ المَوْتَ».

هذا الحديثُ كان رواه لي الشيخ محمد بن جعفر الكتاني

= انظر القصيدة بتمامها مع شرحها في (رغبة الآمل في شرح كتاب الكامل) للمرصفي (١/ ٩٩). (م)

(١) ديوانه ص(٤٥١). (م)

الفاسي رحمه الله[1] يومَ لقيتُه في المدينة المنورة منذ خمس وعشرينَ سنة، ثم قرأتُه في الكتب، واستشهدتُ به في مقدّمةِ (حاضر العالم الإسلامي) وألفاظُه تختلِفُ في روايةٍ عن رواية. فالأستاذُ صاحبُ المنارِ ـ أمتعَ اللهُ بطولِ حياتِه ـ هو الأدرى بأصحِّ رواياته[2]، ومعناه ظاهرٌ، وهو: أنَّ المسلمينَ يأتي عليهم يومٌ

---

(١) محمد بن جعفر الكتاني (١٢٧٤ ـ ١٣٤٥هـ = ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م) مؤرّخ، محدث، مكثر من التصنيف. (م)

(٢) الحديث رواه أبو داود في (سننه) والبيهقي في (دلائل النبوة) عن ثوبان مرفوعاً بلفظ: «يوشِكُ أنْ تَداعَى عليكُمُ الأُمَمُ كما تَداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعتِها» فقال قائل: ومِنْ قلّةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال ﷺ: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنّكم غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيْلِ، وسينزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدورِ عدوِّكم المهابَةَ مِنكُم، وليقْذِفَنَّ في قُلوبِكُمُ الوَهْنَ». قال قائل: يا رسول الله! وما الوهنُ، قال: «حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموت».

قوله ﷺ: (تداعى) أصله تتداعىٰ، أي تجتمع، ويدعو بعضها بعضاً لسلبِ ملككم، كما تتداعىٰ الأَكَلَةُ (وهي جمعُ آكل، كالفَعَلَة جمع فاعل) إلى قصعةِ الطعام. و(الغُثاء) بالضم ما يحمِلُه السيلُ ويلقيهِ من الزَّبَدِ والعِيدانِ ونحوِها، ويُضرَبُ مثلاً لما لا قيمةَ له ولا فائدة. و(الوهْن): بالنون الضعف.

وإنما سأله السائل عن سببه فأجابه ﷺ بأنَّ سببَه حُبُّ الحياةِ الدنيا ولذاتِها الخسيسة، وإيثارُها على الجهادِ في الدفاع عن الحقيقة، وإعلاء كلمةِ الله، وكراهيةُ الموتِ، ولو في سبيلِ =

. . . . . .

= الحقّ، حِرْصاً على هذه الحياة الخسيسة.

وقد أوردتُ هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وأوردتُ قبلَه حديثَ ثوبان الآخر، الذي رواه مسلم في (صحيحه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زَوَىٰ ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمّتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِيَ لي مِنْها، وأُعطيتُ الكَنزين الأحمرَ والأبيضَ، وإنّي سألتُ ربِّي أنْ لا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ عامّة، وأن لا يسلِّطَ عليها عدوّاً مِنْ سِوَى أنفسِهم، فيستبيحَ بيضتَهم (أي ملكَهم وسلطانَهم ومقرّ قوّتهم) وأنَّ ربّي قال لي: يا محمّد إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنّي أعطيتُكَ لأمّتِكَ أن لا أُهلِكهم بسَنَة عامّة (أي قحط) وأنْ لا أسلِّطَ عليهم عدوّاً مِنْ سِوَى أنفسِهم، فيستبيحَ بيضتهم، ولو اجْتَمَعَ عليهم مَنْ بأقطارِها ـ أو قال مِنْ بينِ أقطارِها ـ حتى يكونَ بعضُهم يهلكُ بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً» ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النَّسائيّ بزيادةٍ على رواية مسلم هذه، وكلا الحديثينِ من أعلام النبوّة، التي ظهر بها صدقه ﷺ بعد قرونٍ من وفاتِه وَرَفْعِ رُوحِه إلى الرفيقِ الأعلى، فما ذهبَ شيءٌ مِنْ مِلْكِ المسلمين إلى أيدي الأجانبِ إلا بخذلان بعضِهم لبعض، ومساعدتِهم للأجانبِ على أنفسِهم، وفي هذه الرسالة للأمير شكيب بعضُ الشواهدِ من مسلمي هذا العصر على ذلك.=

يصيرونَ فيه مأكلةً، وتمتدُّ إليهمُ الأيدي من كلِّ جهةٍ.

فهذا العصرُ الذي نحنُ فيه هو ذلك اليوم، وأنَّ المسلمينَ لا يكونُ عيبُهم يومئذٍ قلّةَ العددِ، بل يكونُ عددُهم كثيرًا، وإنّما لا تُغْنيهم كثرتُهم شيئًا، لأنّ الكثرةَ بنفسِها لا تُفيدُ إنْ لم تقترن بجَوْدةِ النوعِ، والكميةِ لا تُغني عن الكيفية[1]، وعلّةُ العِلَلِ في ضعفِ المسلمينَ ذلك اليومَ هو الجُبْنُ والبُخلُ، صريحُ ذلك في قوله ﷺ: «مِنْ حُبِّكُم الدُّنْيا وكراهِيَتِكُمُ المَوْتَ»[2].

= وراجع الموضوع بتفصيله في تفسير الآية المشار إليها في تفسير المنار: ٧/ ٤٩٠ ـ ٥٠١. (ر)

(١) عدد المسلمين اليوم لا يقلّ عن ثلاثمئةٍ وسبعين مليوناً، وقد يناهز الأربعمئة مليون، فيا لها من قوّةٍ لو كانَ جميعُهم رجالاً كالرّجال المتغلّبين عليهم. (ش)

(٢) نعم يَخْشَىٰ المسلمون دول الاستعمارِ فيطيعونَها، حتى على آبائهم وأبنائهم، وأعزّ الناسِ لديهم، وأغلى الأمور عليهم، وعلى دينهم، ووطنهم، وقوميتهم، وثقافتهم، وإن سألتَهم عن أسبابِ هذه الطاعة العمياء قالوا لك: إنّنا إنْ لم نُطِعْهم أهلكونا، ونحن لا قِبَلَ لنا بمقاومتِهم، ونسوا أنّهم عندما تقذِفُ بهم دولُ الاستعمار في حروبها، يلاقونَ فيها الموتَ الذي لم يكونوا ليلاقوا أعظمَ منه لو كانوا عصوها ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

ولعمري إنَّ تعليل هذه الحالة الروحية التي نجدها عند المسلمين الخاضعين لدول أوروبة المستعمِرة ليتعذَّر على نُطُسِ أطباءِ =

. . . . . .

= الاجتماع جميعاً، إذ لا يمكنُ أن يُعْقَلَ صنفانِ من الموت:
أحـدُهما: مرُّ المذاق، لا تقوى على مواجهته النفسُ، وهـو الموتُ في مقاومةِ الأجنبي المتغلِّب.
والثاني: مقبولُ الطعم، سهلُ الاقتحام، وهو الموت في مقاتلةِ عدوٍّ ذلك المتغلب.
لاجرم أنَّ هذه حالةٌ روحيةٌ شاذّة، لا تفسَّر ولا تعلَّل إلا بالمرض، وعدم اعتدال المزاج، وكون الرُّعبِ المستمرّ الذي أوقعه في قلـوبهم الأجنبيُّ المتغلِّبُ انتهى بأن أوجدَ في نفوسِهم هذه الحالة الغريبة، التي لم أجدْ لها شبيهاً في التاريخ، إلا ما كان منهم يومَ زحفِ التتار المغوليين إلى بلاد الإسلام، ونسفوا تلك الحضارات الزاهـرة، التي كـانت في تركستان، وإيـران، والعراق، وذبحوا الملايين من أهلها ذبحَ الشياه، ودمّروا بغداد دارَ الخلافة، وأهلكوا الخليفةَ المستعصم العباسي تحتَ أرجل الفيلة، وجعلوا من جماجمِ القَتَلى آكاماً عالية، فوصل الرعبُ بقلوبِ المسلمينَ إلى أن صارَ المغوليُّ الواحدُ يدخلُ على المئة منهم، فيقتلُهم جميعاً، وأسلحتهم في أيديهم، ولا تحدّثُهم نفوسُهم بأدنى مقاومة، ولا يُقال لمثل هذا: إنّه مجرَّد انكسارِ قوًى معنوية، بل هو أبعدُ مدًى من هذا بكثير، فإنَّ انكسارَ القُوَى المعنوية لا يسلبُ المغلوبَ كلَّ آثارِ النشاطِ للمقاومةِ، وإنما كان ذاك مَرَضاً زاغت به الطبائعُ البشريَّةُ عن مركزِها، وعتهاً استولى على العقول، وجرّدها من خواص الإدراك. =

. . . . . .

= وقد حدَّث أحدُ المؤرّخين بروايةٍ غريبةٍ عن رجلٍ شهدَ تلك الوقائع بعينه فقال ما معناه: فررتُ من التتار، فساقني القدرُ إلى بيتٍ وجدتُ فيه ثمانيةَ عشرَ رجلاً، كلُّهم تخبّؤوا فيه، لعلَّهم ينجون من الموت، فبينما نحن جالسون، إذ دخلَ علينا أحدُ التتار، فرآنا جميعاً، وعلى وجوهنا غبرةُ الموتِ، ولم يكن معه سلاحٌ يقتلُنا به، فقال لنا: ابقوا هنا حتى آتي بسكين وأذبحكم، ومضى ليأتي بالسكين، فلمّا ذهبَ، قلت للجماعة: ماذا تنتظرون؟ قالوا: لا ننتظرُ شيئاً سوى الموت، قلت لهم: كيف ننتظرُ الموتَ من يدِ رجلٍ واحدٍ، ونحنُ عصبة (١٩) رجلاً؟ قالوا: ماذا تريدُ أن نصنعَ؟ قلت: نقتلُه. قالوا: لا تمتدُّ أيدينا إليه لأننا نخاف. قلت: ممَّ تخافون؟ إن كانَ خوفُكُم من الموتِ، فهو قاتلُكم على كلِّ حالٍ. قال: وما زلتُ أشجّعهم إلى أنْ اقتنعَ بكلامي اثنان منهم لا غير، فلمَّا رجعَ المغوليُّ وبيدِه السكين الذي يريدُ أن يقتلَنا به، هجمنا عليه نحنُ الثلاثةُ، ونزعنا السكينَ من يدِهِ، وقتلناهُ به، وخرجنا ونجونا.

هذا وبقيَ المسلمونَ في رُعبٍ من التتارِ غيرِ ممكنِ التعديل، إلى أن خرجَتْ إليهم العساكرُ المصرية في زمن الملك قطز، فتلاقى الجمعان في عين جالوت من فلسطين، وانهزم التتارُ هزيمةً شنيعة، ثابتْ بعدَها عزائمُ المسلمين إليهم، وأخذوا يَفْتِكونَ بالتتار، وصار هؤلاء عندهم كسائرِ الناس، ولو لم يدخلِ التتارُ في الإسلامِ لكانَ المسلمونَ أبادوهم. =

ومن المعلوم أنَّ الإفراطَ في حُبِّ الدنيا يحرِمُ الإنسانَ [من] التمتُّعِ بها، وأنَّ الغُلوَّ في المحافظةِ على الحياةِ تكونُ عاقبتُه زيادةُ التعرّضِ للهلاك[1]، هذه من سنن اللهِ في خلقِه، أو من النواميسِ الطبيعيةِ، كما يُقال في هذا العصر، فالقرآنُ يأمرُ المسلمَ بأنْ يَحتقرَ الحياةَ والمالَ وكلَّ عزيزٍ في سبيلِ الله، ويأمرُ المسلمَ أن يثبتَ ولا ييأسَ، وأن يصبرَ ولا يتزلزَل، مهما أصيبَ، وتراه يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

هكذا يريدُ اللهُ المسلمينَ أن يكونوا، فإن لم

= وخلاصةُ القول: إنَّ المسلمين كلّما آثروا السلامةَ ازدادوا موتاً، وكلما احتقروا الحياةَ ازدادوا حياةً، وإلى هذا أشار اللهُ تعالى في كتابه الكريم حين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩]. (ش)

(١) إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أي: إنَّ عدم الإنفاق في سبيلِ الله هو التهلكةُ بعينها، وقد أصابتِ المسلمينَ تهلكةُ عدمِ الإنفاقِ، وصدقَ فيهم ما حذّرهم اللهُ منه. (ش)

يكونوا[1] هكذا بصريحِ نصِّ القرآن، فكيف يَسْتَنْجِزُونَ اللهَ عِدَاتِه بالنصرِ والتَّمكين، والسعادة والتأمين؟.

ضيـاعُ الإسـلامِ بين الجامدينَ والجاحدين وعمل كلٌ منهما:

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمودُ على القديم، فكما أنَّ آفةَ الإسلامِ هي الفئةُ التي تريدُ أن تلغيَ كلَّ شيءٍ قديمٍ، من دونِ نظرٍ فيما هو ضارٌّ منه أو نافع، كذلك آفةُ الإسلام هي الفئةُ الجامدةُ التي لا تريدُ أن تغيِّرَ شيئاً، ولا ترضَىٰ بإدخالِ أقلّ تعديلٍ على أصولِ التعليم الإسلامي، ظنّاً منهم بأنَّ الاقتداءَ بالكفّارِ كفرٌ، وأنَّ نظامَ التعليمِ الحديثِ مِنْ وَضْعِ الكُفّارِ.

فقد أضاعَ الإسلامَ جاحدٌ وجامدٌ:

أما الجاحدُ فهو الذي يأبى إلا أن يُفرنِجَ المسـلمين وسـائرَ الشـرقيين، ويخرجَهم عن جميعِ مقوّمـاتهم ومشـخّصاتهم، ويحمِلَهم على إنكارِ ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي، الذي يدخلُ في تركيبِ جسمٍ آخرَ كان بعيداً، فيذوبُ فيه، ويفقدُ هويتَه.

وهذا الميلُ في النفس ـ هو إنكارُ الإنسانِ لماضيه، واعترافُه بأنَّ آباءَه كانوا سافلين، وأنَّه هو يريدُ أن يبرأَ منهم ـ لا يصدر إلا

---

(١) في الأصل: (ليكون المسلمون). (م)

عن الفسل الخسيس، الوضيعِ النفسِ، أو عن الذي يشعرُ أنَّه في وَسْطِ قومِهِ دنيءُ الأصلِ، فيسعى هو في إنكارِ أصلِ أُمَّتِه بأسْرِها، لأنَّه يعلمُ نفسَه منها بمكانٍ خسيسٍ، ليسَ له نصيبٌ من تلك الأصالة، وهو مخالِفٌ لسننِ الكونِ الطبيعية، التي جعلت في كلِّ أمّةٍ ميلاً طبيعياً للاحتفاظِ بمقوّماتِها ومشخّصاتِها من لغةٍ، وعقيدةٍ، وعادةٍ، وطعامٍ وشرابٍ وسكنى، وغير ذلك، إلا ما ثبتَ ضررُه[1].

محافظة الشعوب الإفرنجية على قوميّتها:

فلننظر إلى أوروبة ـ لأنّها اليوم المثل الأعلى في ذلك ـ فنجدُ كلَّ أمّةٍ فيها تأبى أن تندمجَ في أمّةٍ أُخرى، فالإنكليزُ يريدونَ أن يبقوا إنكليزاً، والإفرنسيس يريدونَ أن يبقوا إفرنسياً، والألمان لا يريدون أن يكونوا إلا ألماناً، والطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طلياناً، والروس قُصارى همّهم أن يكونوا روساً، وهلمّ جرا.

ومما يزيدُ هذا المثالَ تأثيراً في النفسِ أنَّ الإيرلنديين مثلاً أمةٌ صغيرةٌ مجاورةٌ للإنكليز، وقد بذلَ هؤلاءِ جميع ما يتصوّره

---

(١) قال المستر شمبرلين ناظر خارجية إنكلترة سابقاً: نحن الإنكليز أُمّةٌ تقليديّةٌ محافِظَةٌ على القديم، لا نرضى بتبديلِ شيءٍ من أوضاعِنا إلا إذا ثبتَ ضررُه، ولم يبقَ مناصٌ من تغييره. (ش)

العقل من الجهود ليدمجوهم في سوادهم مدةً تزيدُ عن سبعمئة سنة، فأبوا أن يصيروا إنكليزاً، ولبثوا إيرلنديين بلسانِهم وعقيدتِهم، وأذواقِهم، وعاداتِهم.

وفي فرنسة نفسِها تأبى أمة (البريتون) إلا أن تحافِظَ على أصلِها.

وفي جنوبي فرنسة جيلٌ يُقالُ لهم: (الباشكنس) احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط، ثم تجاه العرب، ثم تجاه الإسبان، ثم تجاه الفرنسيس، وجميعُهم مليون نسمة، وهم لا يزالون على لُغتِهم وزيِّهم وعاداتِهم، وجميعِ أوضاعِهم.

و(الفلمنك) يأبَوْنَ أن يجعلوا اللغةَ الإفرنسية لغتهم، والثقافة الإفرنسية ثقافتهم، ولم يزالوا يصيحون في بلجيكة، حتى اضطرت دولة بلجيكة إلى الاعترافِ بلغتِهم لغةً رسميةً.

وفي سويسرة ثلاثة أقسام: القسم الألماني وهو مليونان وثمانمئة ألف، والقسم المتكلِّم بالطليانية وهو أكثر قليلاً من مئتي ألف، والقسم المتكلِّم بالإفرنسية، وهو ثمانمئة ألف، وكلُّ قسمٍ منها محافِظٌ على لغتِه وقوانينِه ومنازعِه، مع أنَّهم كلُّهم متّحدون في مصالِحِهم السياسية، وهم يعيشون في مملكة واحدة.

وإنَّ الدانمارك وبلاد الإسكندیناف وهولندة فروعٌ من الشجرةِ الألمانية، لا مراءَ في ذلك، لكنّهم لا يريدونَ الاندماج في الألمان، ولا العدول عن قوميّاتهم.

وبقي (التشيك) مئين من السنين تحتَ حكم الألمان، وبقوا تشيكاً، واستأنفوا بعد الحربِ العامّةِ استقلالهم السياسي، بعد أن حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسيّ مدّةَ خمسة قرون.

وقد هذَّب الألمان (أمة المجر)، وعلّموهم ورقّوهم، ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من إدماجِهم في الألمانية، فتجدُهم أحرصَ الأممِ على لغتهم المغولية الأصلية، وعلى قوميتهم المجرية.

ولبثت روسية العظيمة أكثر من مئتين إلى ثلاثمئة سنة تحاوِلُ إدخال بولونية في الجنس الروسي، وحَمْلِ البولونيين على نسيانِ قوميّتهم الخاصَّة، بحجّة أنَّ العِرْقَ السلافي يجمعُ بين البولونيين والروس، ففشلتْ جميعُ مساعيها في إدماج البولونيين فيها، وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمةً مستقلةً في كلِّ شيء، وذلك لأنَّهم لم يتخلَّوا طرفَةَ عينٍ عن قوميتهم.

وليسَ من العجيبِ أن لا تريد أمةٌ عددها (٣٠) مليوناً الاندماج في غيرِها، ولكنَّ (الأستونيين) وهم مليونان فقط، انفصلوا عن روسية، ولم يقبلوا الاندماج فيها، وأحيوا استقلالهم ولسانهم المغولي الأصل، وجعلوا له حروفاً هجائية، ومثلهم أهالي (فنلندة) المنفصلون عن روسية أيضاً.

وقد خابت مساعي الروس في إدماج (الليتوانيين) من هذه الأمم البلطيقية في الجنس الروسي، وانتقضوا بعد الحرب العامة

(١٩١٤ ـ ١٩١٨م) أمـةً مستقلةً كما كانـوا مستقلّين قوميـاً، وجميعُهم أربعةُ ملايين، وأقلُّ منهم جيرانهم الليتونيون[١] الذين هم مليونان لا غير، ومع هذا فقد انفصلوا بعد الحرب، وأسّسوا جمهوريةً كسائر الجمهوريات البلطيقية، لأنّهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم.

وقد عجزَ الرُّوسُ من جهةٍ كما عجزَ الألمانُ من جهةٍ أُخرى عن إدخالِ هذه الأقوامِ في تراكيبِهم القوميّة العظيمة، لأنَّ كلَّ شعبٍ مهما كان صغيراً لا يرضى بإنكارِ أصلِه، ولا بالنزولِ عن استقلالِه الجنسيّ.

وقد حفظ (الكرواتيون) استقلالهم الجنسي مع إحاطـة أُمّتين كبيرتين بهم هم اللاتين والجرمان.

وحفظ (الصربيـون) استقلالهم الجنسيّ مع سيادة الترك عليهم منذ قرون.

ولم يزل (الأرناؤوط) أرناؤوطاً منذ عهدٍ لا يُعرفُ بدؤه، وهم بين أمتين كبيرتين اليونان والصقالبة، أي: السلاف!.

وكذلك (البلغار) أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الرومِ

---

(١) ليتونية هي غير ليتوانية، وكلتاهما من الأمم التي انفصلت عن روسية بعد الحرب العامة (١٩١٨م) لاختلافِ جنسِها عن جنسِ الروس. (ش)

والسلاف واللاتين، ثم جاءَهم الترك، فتعلّموا التركية، لكنّهم بقوا بلغاراً.

ولا أريـدُ أن أخرجَ في الاستشـهادِ عن أوروبة، لأنّي إنْ خرجتُ عن أوروبة قالت تلك الفئةُ الجاحدةُ: نحنُ لا نريدُ أن نجعلَ قدوةً لنا أمماً متأخّرة مثلنا.

فالأمم التي استشهدنا الآن بها كلُّها أوروبية، وكلُّها متعلّمةٌ راقيـةٌ، وكلُّهـا ذواتُ بلـدانٍ ممـدَّنـةٍ منظّمـةٍ؛ وكلُّهـا عنـدهـا الجامعات، والأكاديميات، والجمعيات العلمية، والجيوش، والأساطيل... إلخ.

العبرةُ للعرب وسائر المسلمين برقيّ اليابانيين:

ولكنّي أخرجُ من أوروبة إلى اليابان فقط، لأنَّ رقيَّ اليابان يضارعُ الرقـيَّ الأوروبي، وقد تمَّ لليابان كما تمَّ رقيُّ أوروبـة للأوروبيين، أي في ضمنِ دائرةِ قوميّتِهم، ولسانِهم، وآدابِهم، وحريّتِهم، ودينهم، وشعائرِهم، ومشاعرِهم، وكلّ شيءٍ لهم.

فأنقلُ إلى القرّاء العرب فِقْرةً من رسالةٍ طويلةٍ جاءت من مراسلٍ أوروبي سائحٍ في اليابان، وظهرت في جريدة (جرنال دوجنيف) بتاريخ ٢٠ أكتوبر ـ تشرين الأول (١٩٣١م) فإنَّه يقول: «إنَّ الياباني يحبُّ الفنَّ قبلَ كلِّ شيء، وإنْ رأيتَه ساعياً في كسبِ المالِ فلأجلِ أنْ يُلَذِّذَ بالمالِ أهواءَه المنصرفة إلى الحُسْنِ

والجمال، وقد انتقشَ في صفحةِ نفسِه الشعورُ القوميُّ الشديدُ، عدا الميل إلى الجمال، لأنَّه يفتخرُ بكون اليابان في مدّة ستينَ سنة فقط، صارت مِنْ طورِ أُمَّة من القرون الوسطى، إقطاعية الحكم، إلى أمّةٍ عظيمةٍ من أعظم الأمم، وممّا لا ريب فيه أنَّ الديانةَ اليابانية هي ذاتُ دورٍ عظيمٍ في سياسةِ اليابان (ليتأمّل القارئ) وهي في الحقيقة فلسفةٌ مبنيّةٌ على الاعترافِ بكلّ ما تركهُ القدماء لسلائلهم.

فاليابانيُّ العصريُّ قد ائتلفَ مع جميعِ احتياجاتِ الحياةِ العصريّة، لكنْ مع حفظِ الميلِ الدائمِ إلى الرّجوعِ إلى ماضيه، ومع التمسّك الشديدِ بقوميّته، غير مجيب نداءَ التفرنج (وفي الأصل التغرّب Occidentalisme) الذي لا يريدُ اليابانيُّ أن يأخذَ منه إلا ما هو ضروريٌّ له، لأجل مصارعةِ سائرِ الأممِ بنجاح، ولا شكَّ أنَّ هذا مثالٌ فريدٌ في تاريخِ أمم الشرقِ الأقصى».

ثم يقول: «كان اليابانيون يكرهون الأسفارَ إلى البُلدان البعيدة، ويحظرون دخول الأجانب إلى بلادهم، ولكنّ هذا المنعَ قد ارتفعَ بعدَ النهضةِ العصريةِ، وتلافتِ اليابانُ ما فاتَ بشكلٍ مدهشٍ، والنتائجُ هي أمامنا، إلا أنَّ الماضي لا يزالُ عندَ اليابانيين مقدَّساً معظَّماً في جميع طبقاتهم، لأنَّه في هذا الماضي المقدَّس يجدُ اليابانيون جميعَ شعورِهم بقيمتهم الحاضرة، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامّة، التي لا سبيلَ إلى الحياةِ

من دونِها في أيامنا هذه، لكنْ ينبذونَ كلَّ تغرّبٍ، بمجرَّدِ ما يجدونَ أنفسَهم في غنًى عنه، ويعودون مع اللذةِ إلى شعورِهم القوميّ الخالص، الذي به يعتقدون أنّهم الأعلون.

وهناك هياكل (شنتو) ومعابد (زن) و(الهياكل البوذية) وهي مكرَّمةٌ، مُعظَّمةٌ، مخدومَةٌ بأشدَّ ما يمكنُ من الحماسةِ الدينية والإيمان الثابت، كما كانت منذ قرون.

والحقُّ أنّ هذا الاحترامَ الشديدَ الذي يشعرُ به اليابانيون لقديمهم ولمعبوداتهم هو الذي قام عندَهم حِصناً منيعاً دونَ المبادئ الشعوبية، والأفكار الشيوعيّة المضرّة».

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسة تأليفٌ جديدٌ عن اليابان للمركيز لامازلِيير (La Mazeliere) قد أطنبت الجرائدُ في وصفِه، ونشرت عنه جريدة (الديبا) مقالاً رنّاناً، فنحنُ نوصي القرّاءَ الذين يهمّهم أن يعرفوا كيفيّة ارتقاء اليابان ـ وهو موضوعٌ في غاية الجلالة، لما فيه من الاستنتاجِ لسائرِ بلاد الشرق ـ بمطالعةِ هذا الكتاب، الذي لا يمكِنُ أن ينسبَ إلى مؤلّفه التعصّب لليابان، على أنّني رأيتُه في الجملةِ مطابِقاً لتواريخَ ألّفها علماءُ يابانيون متخصِّصونَ في التاريخ، وهذه التواريخ مترجمةٌ من اليابانية إلى الإفرنسية.

ولا بدَّ لي في هذه العجالة من نقلِ بعضِ فِقَرٍ من تاريخ (لامازلِيير) المذكور، قال في أثناء الكلام على تمدّن اليابان

العصري، وخروج هذه الأمة من عزلتها القديمة ما يلي: «فبدأتِ اليابانُ تستعيرُ من أوروبة وأمريكة قسماً من مدنيتهما المادية، ومن نظامِهما العسكرية، ومن مباحثِ تعليمهما العام، ومن سياستهما المالية، فكان المجدّدون يجتهدونَ في أن يقتبسوا مِنْ كلِّ شعبٍ ما يرونَه الأحسنَ عنده، فكان ذلك مشروعُ تجديدٍ وهدمٍ وإعادةِ بناءٍ، وظهرت آثارُ ذلك في جميعِ مناحي الحياةِ اليابانية».

ثم تكلَّم على الحرب اليابانية الصينية، وانتهى إلى قوله الذي نترجمه ترجمةً حرفية: «إنَّ ظفرَ اليابان بالصين لم يُثْبِتْ علوَّ الأفكارِ والمبادئ العلمية التي أخذتها اليابانُ عن الغرب وكفى، بل أثبتَ أمراً آخرَ، وهو أنَّ شعباً آسيوياً بمجرَّدِ إرادته وعزيمتِه عرفَ أنْ يختارَ ما رآه الأصلح له من مدنية الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظِ باستقلالِه وقوميتِه وعقليتِه وآدابِه وثقافتِه». اهـ.

وقبلاً كنتُ نشرتُ في الجرائدِ ـ وما نشرتُه لم يكن إلا نقطةً من غدير ـ خلاصةَ الحفلاتِ التي أقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين، وكيف استمرَّت مراسِمُ هذا الاحتفالِ مدَّةَ شهرٍ، وكانت بأجمعِها دينية، وكيف أنَّ (الميكادو) هو كاهِنُ الأُمّة الأعظم، وكيف أنَّه من سلالة الآلهة (الشمس)، وكيف اغتسل في الحمّام المقدّس المحفوظِ من ألفي سنة، وكيف أكلَ مع الآلهة الأرزّ المقدّس، الذي زرعته الدولةُ تحت إشرافِ الكهنة، حتى

يكونَ تامّ القدسية لا شبهة فيه، وكيف كان ثمة في الحفل ستمئة ألف ياباني، وكلّهم يهتفون ليحيا (الميكادو) عشرة آلاف سنة إلى غير ذلك.

لماذا لا نسمّي اليابان وأوروبة رجعية بتديّنها:

فلماذا ـ يا ليتَ شعري ـ تتقدَّمُ اليابانُ هذا التقدّم السريعَ المدهشَ، وتصيرُ هذه الأمةُ أمةً عصريةً، يُضرَبُ برقيِّها المثلُ، وهي تضرِبُ بأعراقِها إلى عقائد وعاداتٍ ومنازعَ مضى عليها ألفا سنة، ويكونُ إمبراطورُها هو كاهنها الأعظم، ولا يُقالُ عنها: رجعية ومرتجعة وارتجاعية ومتأخّرة ومتقهقرة؟.

فإن كانتِ اليابانُ رجعيةً فمرحباً[1] بالرجعية.

ولماذا كان ملك إنكلترة وإمبراطور الهند السيد على (٤٥٠) مليون آدمي في الأرض من البيض والسمر، والصفر والحمر، والسود، هو رئيس الكنيسة الأنكليكانية، ومجالسه النيابية تبحثُ في جلساتٍ عديدةٍ في قضيةِ الخبزِ والخمرِ، هل يستحيلانِ بمجرَّدِ تقديس القسيس إلى جسدِ المسيحِ ودمِه فعلاً، دون أدنى شك، أم ذلك من قبيل الرمزِ والتمثيلِ[2]

---

(١) في الأصل (مرحى). م

(٢) لم يحدِّثِ التاريخُ عن مسألةٍ من مسائلَ إنكلترة الداخلية أخذت في الأهمية الدورَ الذي أخذته قضية (الأفخاريستا) وهي قضيةُ=

. . . . . .

= تحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح.

وأصلُ هذه العقيدة ما رواه الإنجيل من أنَّ السيدَ المسيحَ عليه السلام قبلَ صعودِه إلى السماء تعشّى مع تلاميذه وودَّعهم، وبينما هو على المائدةِ، تناولَ لقمةً من الخبزِ، وقال: كلوا، هو ذا جسدي، وشربَ جُرْعةً من الخمرِ، وقال: اشربوا هو ذا دمي. فتكوَّنت من هذه الكلمات في النصرانية عقيدةٌ معناها أنَّ الخُبزَ والخمرَ يستحيلانِ إلى جسدِ الربِّ تماماً، وحقيقةً لا مجازاً.

ولما كان القسيسُ عندَهم هو خليفةَ المسيح، كان لابدَّ له كلَّ يومٍ عند التقديس في الكنيسة أن يتناولَ لقمةً من الخبزِ، ويشربَ رشفةً من الخمر، وهو يتلفّظ بنفس الكلمات التي تفوّه بها المسيح عليه السلام في أثناء عشائه مع الحواريين. فمتى فعل ذلك تحوَّل هذا الخبزُ وهذا الخمرُ إلى جسدِ الربِّ حقيقةً لامجازاً، ولذلك يوضَعُ هذا الخبزُ ـ ويسمّونه القربان ـ في حُقٍّ ثمينٍ فوقَ المذبح من الكنيسة، ويسجدون له، وذلك باعتبار أنَّ هذا القربان هو الإلٰه نفسُه، ويسمُّون وجودَ الإلٰه فيه (الحضور الحقيقي) وبالإفرنسية (Présence réelle) وهذا من أعظمِ الأسرارِ المقدَّسةِ عندهم.

وإذا أشرفَ المريضُ على الموتِ جاءَ القسيسُ، وتلقّى منه الاعترافَ بذنوبه، وناوله هذا القربانَ، فقيل: إنَّه ذهب إلى الآخرة متزوّداً بالأسرار الإلٰهية. وقد كانت هذه العقيدةُ هي عقيدة المسيحيين جميعاً، ولا تزالُ عقيدةَ أكثرِهم إلى اليوم. =

. . . . . .

= إلاّ أنّه عندما جرى الإصلاحُ البروتستانتي تغيَّرَ الاعتقاد عند أتباعه بقضية الحضور الحقيقي، وباستحالة الخبز والخمر، اللذين يقدِّسُ عليهما القسيسُ إلى جسد الربّ ودمه حقيقةً لا مجازاً، وقال البروتستانتيون: إنَّ هذا مجازٌ لا حقيقة، وإنَّه مجرّد رمزٍ وتذكارٍ، وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح، والسجود له باعتبار أنّه هو الإلٰه بذاته، وصاروا في كنائس البروتستانت يجعلون هذا القربانَ في تجويفٍ خاصّ به من الحائط.

ولكنّ الكنيسةَ الأنكليكانية (أي الكنيسة العليا في إنكلترة) لم يتفق رأيُها في قضية القربان، فحزبُ اليمين منها كان باقياً على عقيدته الأصلية، وهي أنَّ الخبزَ والخمرَ يستحيلانِ بتقديسِ الكاهنِ إلى جسدِ الرَّبِّ حقيقةً لا مجازاً، وحزبُ الوسطِ مع اليسارِ كانا يقولان: إنَّ كلماتِ السيد المسيح هذه لم تكن إلا رمزاً، وإنَّه لا يمكن أن يتحوَّل الخبزُ والخمرُ تحت تقديسِ الكاهنِ إلى جسدِ الربّ ودمِه، واعتمدوا في رفضِ العقيدة الكاثوليكية على (كتاب الصلاة) الذي هو دستور الكنيسة الأنكليكانية، وهو كتابٌ وضعه بروتستانتيو الإنكليز لمذهبهم يوم انشقوا عن الكنيسة الرومانية.

ولمّا كانت هذه المسألةُ مسألةً خلافيةً بين أتباعِ الكنيسة الأنكليكانية، وقد عمل فيها كلُّ فريقٍ برأيه، وخِيْفَ فيها من انشقاقٍ عامٍّ، أمرت الحكومةُ البريطانيةُ بتأليفِ مجمعٍ من

. . . . . .

= الأساقفةِ، تحت رئاسة إمامهم الأكبر رئيس أساقفة (كنتربري) لأجل التدقيق في هذه المشكلة وحلّها على أحد الوجهين.
فانعقد المجمع، وذلك منذ أربعين سنة، ولم يوفَّقْ إلى حلٍّ يرضي الفريقين، وأخيراً ألحَّتِ الحكومةُ على هؤلاء الأساقفة بأن يبتّوا في القضية إن لم يكن بالإجماع فبأكثرية الآراء، فحكموا بالأكثريّة، وخالفَ في الحكمِ ستةٌ من المطارين، وذلك بأنَّ الخبزَ والخمرَ يستحيلان في قدّاس الكاهن إلى جسد المسيح ودمه، وعليه تجبُ عبادتُهما، والسجودُ لهما، ووضعهما في أعلى المذبح، لا في كوّةِ حائطِ الكنيسة.
وبالاختصار رجعَ أكثرُ المطارين في هذه المسألة إلى عقيدة البابوية، ولمّا كان القانون الأساسيُّ لبريطانية العظمى يوجِبُ أن يكونَ القولُ الفصلُ في جميع هذه القضايا الدينية لمجلس اللوردات، ولمجلس العموم، عملاً بكتاب الصلاة، الذي هو مرجِعُ الأمّة الإنكليزية، أُحيل حُكْمُ المطارين هذا إلى مجلس اللوردات، وكانت للمناقشات فيه جلساتٌ متعدّدةٌ، بلغت من اهتمامِ الملأ ما لم تبلغه المناقشاتُ في أيّةِ مسألةٍ.
وقيل: إنَّ بعضَ اللوردات ممن بلغَ بهم الكِبَرُ عتيّاً قد حُمِلُوا إلى المجلس على الأكفّ، حتى لا يفوتهم سماعُ هذه المناقشات.
وأخيراً أيَّدَ مجلسُ اللوردات بالأكثرية قرارَ مجمعِ الأساقفةِ، ولم يكن ذلك كافياً، إذ كان لا بدَّ لإمضاءِ الحكمِ من قرارِ مجلسِ الأمّةِ، الذي يُقالُ له: مجلس العموم.

. . . . . .

= فلمَّا جاءتِ القضيةُ إلى مجلس الأمة، نزعَ بأكثرية أعضائِه عرق العصبية البروتستانتية، وكان في مقدّمتهم ناظرُ الداخلية البريطانية، فنقضوا قرارَ مجلس اللوردات، وحكمَ مجمع الأساقفة، وقرّروا أنَّ الخبزَ والخمرَ لا يستحيلان بالبداهةِ إلى جسدِ السيد المسيح عليه السلام ودمِه، وتوكَّؤوا في ذلك على (كتاب الصلاة) الذي هو دستور الكنيسة الأنكليكانية الوحيد، ولم يوافقوا مجمعَ الأساقفةِ إلا على زيادة العبارات التي زادَها في الدعاء لملك إنكلترة. وعلى أثر هذا القرار من مجلس العموم استعفى رئيسُ الأساقفةِ كنتربري من منصبه.

وإنَّما أتينا على ذكر هذه الحادثة التي ليست موضوعنا مباشرةً إثباتاً لأمرين:

أولهما: استمساك الأمة الإنكليزية بمبادئها الدينية، وشدّة اهتمامها بهذه المباحث، مع أنها في طليعة الأمم الراقية بلا نزاع.

والثاني: تشدّق مَنْ يقولُ: إنّ أوروبة نبذتِ الدينَ ظهريّاً، ومن يقول: إنَّ أوروبة فصلت الدينَ عن السياسة، وأنَّ هذا الفصلَ كان سببَ نجاحِها، وأنَّه حريٌّ بالمسلمين أن ينهجوا نهجها إن كانوا يريدون لأنفسِهم رقياً كرقيّ الأوروبيين، وسلطاناً في الأرض كسلطانِهم، فأينَ فصلُ الدينِ عن السياسةِ هنا؟.

وهذا (كتاب الصلاة) هو الذي اعتمد عليه مجلسُ العموم في نقضِ قرارِ مجمع الأساقفة، ثم قرار مجلس اللوردات، وأين

ولا يُقالُ عنه: إنَّه رجعي، ولا يقال عن دولتِه العظمى: إنها متأخرة أو متقهقرة، فإنْ كانت إنكلترة بعد هذا متقهقرةً، فيا حبذا التقهقر!!.

ولماذا كانتِ القارةُ الأوروبيةُ كلُّها مسيحيةً مفتخِرَةً بمسيحيتها، تتباهى بذلك في كلِّ فرصة، متّحِدَةً في هذا الأمر على ما بينها من عداوات ومنافسات، ولا ننبزُها حتى بقولِنا: رجعية وارتجاعية.

والحالُ أنَّ الديانة التي تدين بها أوروبة عمرها (١٩) قرناً. وهذا عهدٌ يصحُّ أنْ يُقال عنه: قديم وقديم جداً.

وهؤلاء اليهود (مهما تنكِرُ عليهم من الفضائل، فلا نقدِرُ أن ننكرَ عليهم المقدِرَةَ والذكاءَ، والحسّ العمليّ، والجدّ الهائل) لا

= فصل الدين عن السياسة وأنتَ ترى أنّ مسألةً دينيةً بحتةً تُطْرَحُ في مجلس اللوردات ومجلس النواب، ويفصِلان فيها، فإنْ لم تكن هاته المسألةُ دينيةً فما الدينيُّ إذاً؟ وإن لم يكن مجلسا الشيوخ والنوّاب مختصين بالسياسة، فما المجالس التي تختصّ بالسياسة بعدهما؟

فليتأمّل القارئ المنصف مدى التضليل الذي يقومُ به المضلِّلون من (المسلمين الجغرافيين) إما جهلاً وتعامياً عن الحقيقة، وإما خدمةً للاستعمار الأوروبيّ، الذي ليس له غرضٌ أعزُّ عليه من أن يأتيَ على بنيانِ الإسلام من القواعد. (ش)

يزالونَ يفخرون بتوراةٍ وُجِدَت منذ آلاف السنين، ويشاركُهم فيها المسيحيون.

ولماذا لا نرى أعظم شبّان اليهود رقيّاً عصرياً، يجاهدون في إحياءِ (اللغة العبرية) التي لا يُعرفُ مبدأُ تاريخها، لتوغّلها في القِدَم، ولا يُقالُ عنهم: إنَّهم رجعيون ومتأخّرون وقهقريون؟!!.

وقد نشر (وايزمان) رئيس الجمعية الصهيونية حديثاً في جريدةِ (الماتن) كان مِنْ أهمّ ما فَخَرَ به، وأدلى به كمأثرة ينبغي أن تذكُرهـا لهم الإنسانية، هو (أنَّ فلسطينَ الحديثةَ تتكلَّم اليومَ بأجمعها بلغة الأنبياء) يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية، التي قد نشرَ الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة، وأجبروا نشأهم الجديد على أن يتحدَّثوا بها، لتكونَ اللغةَ الجامعةَ لليهود.

ومن الذي فعل هذا؟.

الجواب: هم اليهود العصريون، الذين هم أشدُّ الناسِ أخذاً بمبادئ العلمِ الحديثِ والحضارة العصرية.

وماذا عساني أحصي من هذه الأماثيل والعِبَر في رسالةٍ وجيزةٍ كهذه؟! ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

كلُّ قومٍ يعتصمونَ بدينهم، ومقوّمات ملّتهم، ومشخّصات قومهم الموروثين، ولا يُتبَرّون بهذه الألقاب إلا المسلمين!.

فإنَّه إذا دعاهم داعٍ إلى الاستمساكِ بقرآنهم، وعقيدتِهم،

ومقوّماتهم، ومشخّصاتهم، وباللسانِ العربي وآدابِه، والحياة الشرقية ومناحيها، قامت قيامةُ الذينَ في قلوبِهم مرض.. وصاحوا: لتسقط الرجعيةُ.. وقالوا: كيف تريدون الرقيَّ وأنتم متمسّكون بأوضاعٍ باليةٍ، باقيةٍ من القرون الوسطى، ونحن في عصرٍ جديد؟!.

جميعُ هؤلاء الخلائق تعلّموا، وتقدّموا، وترقّوا، وعلوا، وطاروا في السماء، والمسيحيُّ منهم باقٍ على إنجيلِه وتقاليدِه الكنسيّة، واليهوديُّ باقٍ على توراته وتلموده، واليابانيُّ باقٍ على وثنه وأرزِّه المقدّس، وكلُّ حزبٍ منهم فرحٌ بما لديه.

وهذا المسلمُ المسكين يستحيلُ أن يترقّى إلا إذا رمَىٰ بقرآنِه وعقيدتِه، ومآخذه ومتاركه، ومنازعه ومشاربه، ولباسه وفراشه، وطعامه وشرابه، وأدبه وطربه، وغير ذلك، وانفصلَ مِنْ كلِّ تاريخه، فإنْ لم يفعل ذلك فلا حظَّ له من الرقيّ!!.

فهذا ما كانَ مِنْ ضررِ الجاحدِ الذي يقصدُ السوءَ بالإسلامِ والشرقِ أجمع، ويخدعُ السُّذَّجَ بأقاويله.

غوائلُ الجامدين في الإسلام والمسلمين:

وبقي علينا المسلمُ الجامدُ، الذي ليس بأخف ضرراً من الجاحد، وإن كان لا يشركه في الخبثِ وسوءِ النيّة، وإنَّما يعمل ما يعمله عن جهلٍ وتعصُّب.

فالجامد هو الذي مهَّد لأعداءِ المدنية الإسلامية الطريقَ لمحاربةِ هذه المدنيّة، محتجّين بأنَّ التأخّر الذي عليه العالَم الإسلامي إنَّما هو ثمرةُ تعاليمِه.

والجامدُ هو سبب الفقرِ الذي ابتُلِيَ به المسلمون، لأنَّه جعل الإسلامَ دين آخرةٍ فقط، والحالُ أنَّ الإسلامَ هو دينُ دنيا وآخرة، وإنَّ هذه مزيةٌ له على سائر الأديان، فلا حصرَ كسبَ الإنسان فيما يعودُ للحياةِ التي وراء هذه، كما هي دياناتُ أهلِ الهندِ والصين، ولا زهّده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الإنجيل، ولا حصرَ سعيَه في أمورِ هذه المعيشةِ الدنيويةِ كما هي مدنية أوروبة الحاضرة.

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها، بحجّة أنَّها من علوم الكفّار. فَحَرَمَ الإسلامَ ثمراتِ هذه العلوم، وأورثَ أبناءَه الفقرَ، الذي هُمْ فيه، وقصَّ أجنحتَهم، فإنَّ العلومَ الطبيعيّةَ هي العلومُ الباحثةُ في الأرض، والأرضُ لا تخرِجُ أفلاذَها إلا لمن يبحثُ فيها[1]، فإنْ كُنَّا طول العمر لا نتكلّم إلا فيما هو عائدٌ للآخرة، قالت لنا الأرضُ: اذهبوا توّاً إلى الآخرة، فليس لكم نصيبٌ منّي.

---

(١) كان جَدّي الأدنى رحمه الله تعالى يقول: إنْ جارَ عليكَ الزمانُ فعليكَ أن تجورَ على الأرضِ، أي: تلحُّ وتجتهدُ في استخراجِ خيراتِها. (ر)

ثم إننا بحصر كلِّ مجهوداتِنا في هذه العلوم الدينية، والمحاضرات الأخروية، جعلنا أنفسَنا بمركزٍ ضعيفٍ بإزاءِ سائرِ الأمم، التي توجَّهت إلى الأرض، وهؤلاء لم يزالوا يعلون في الأرض، ونحن ننحطّ في الأرض، إلى أنْ صارَ الأمرُ كلُّه في يدِهم، وصاروا يقدرون أن يأفِكونا عن نفسِ ديننا، فضلاً عن أن يملكوا علينا دنيانا، من ليست له دنيا فليس له دين، وليس هذا هو الذي يريدُه الله بنا، وهو الذي قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال فيما حكاه وأقرّه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وعلَّمَنا أن ندعوه بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]... إلخ.

والمسلمُ الجامدُ لا يدري أنَّه بهذا المشرب يسعى في بوار ملّته، وحطّها عن درجة الأمم الأخرى، ولا يتنبّه لشيءٍ من المصائبِ التي جرَّها على قومِه إهمالُهم للعلوم الكونية، حتى أصبحوا بهذا الفقرِ الذي هم فيه، وصاروا عيالاً على أعدائهم، الذين لا يرقبون فيه إلاً ولا ذِمَّةً، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة علَّلها بالقضاء والقدر بادئ الرأي، وهذا شأنُ جميع الكسالى في الدنيا، يحيلون على الأقدار.

هذا الخُلقُ هو الذي حبَّبَ الكسلَ إلى كثيرٍ من المسلمين، فنجمت فيهم فئةٌ يلقَّبون بـ(الدراويش) ليس لهم شغلٌ ولا عمل، وليسوا في الواقع إلا أعضاء مشلولة في جسمِ المجتمعِ الإسلامي.

وهذا الخلقُ بعينه هو الذي جعل الإفرنج يقولون: إنَّ الإسلامَ جبريٌّ، لا يأمرُ بالعمل، لأنَّ ما هو كائنٌ هو كائنٌ، عَمِلَ المخلوقُ أم لم يعمل.

آياتُ العمل في القرآن المبطِلَةِ لتفسيرِ القدَرِ بالجبرِ والكسل:

لا شيءَ أدلُّ على فسادِ هذا الزعم الإفرنجي من القرآن، الملآن بالحثّ على العمل، وباستنهاضِ الهمم، وابتعاثِ العزائم، ونوطِ الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل، الذي يعمله المكلَّف. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبة: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [البقرة: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥] أي: لا ينقصكم أعمالكم، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ

شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤]، (لا يلتكم): من لاتَه يليتُه، أو ولته يلته بمعنى نقصَه، أي: لا يبخسكم من أعمالكم شيئاً. وقال تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]، وقال عزَّ وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [النحل: ٣٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، إلى غير ذلك مما لا يكادُ يُحصى من الآياتِ التي امتلأَ بها القرآن، ومنها ما هو نصٌّ في مسألتنا هذه كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إنَّ صاحِبَ السؤالِ[1] يعلمُ ـ وأكثرُ المسلمينَ لا يعلمون ـ أنَّ هذه الآية خاطب اللهُ تعالى بها أكملَ هذه الأمة إيماناً وإسلاماً، وهم أصحابُ رسول الله ﷺ، إذ تعجَّبوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أُحدٍ، فردَّ اللهُ عليهم ببيان السبب، وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرماة الذين يحمون ظهورَ المقاتلة بألا يبرحوا أماكِنَهم، سواء كان الغَلَبَ للمسلمين أو عليهم، فلمَّا انهزمَ المشركون خالفوا الأمرَ لمشاركةِ المقاتلين في الغنيمة، فكرَّ عليهم المشركون، حتى شجَّ رأسُ النبيِّ ﷺ... إلخ.

---

(١) الشيخ بسيوني عمران. (م).

وكلُّها ناطقةٌ بأنَّ الإسلامَ هو دينُ العملِ لا دين الكسل، ولا هو دينُ الاتّكال على القدر المجهول للبشر، كما يقولُ الدراويش البطّالون: (رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل) كما يزيّن للناس بعض مؤلّفي الإفرنج من أنَّ دينَ الإسلامِ دينُ جمودٍ وتفويضٍ وتسليم، وأنَّ تأخّر المسلمين إنّما نشأ عن ذلك.

ولو كان في هذه الدعوة ذرّةٌ ما من الصحة لما نهضَ الصحابةُ ـ أخبرُ الناسِ بالإسلام ـ وفتحوا نصفَ كُرةِ الأرضِ في خمسينَ سنةٍ، ولكنَّ التسليمَ الذي يتكلَّمون عليه، ويهرفون فيه بما لا يعرفون، إنَّما هو مقرونٌ بالعمل وبالكدحِ وبالسعي، وإلا فلا يسمَّى تسليماً، بل يسمَّى جموداً، ويعدّ بطالةً، وهو مخالِفٌ للقرآنِ وللسنّة.

وأمَّا إذا كان التسليمُ للهِ مقروناً بالعمل؛ فإنَّه أنفعُ في الدُّنيا والأخرى، لأنَّ إفراطَ المرءِ في الاعتمادِ على نفسِه يورِّطُه في البطرِ إذا نجحَ، وفي الجزعِ إذا فشلَ، والذي يُريدُه الإسلامُ إنَّما هو أن يعقلَ[1] الإنسانُ ويتوكّل، وأن يدبِّرَ لنفسِه بهدايةِ عقلِه الذي

(١) في قوله (يعقل) هنا توريةٌ لاحتماله معنيين: ظاهرهما تحكيم إدراكِ العقلِ في الأمور مع التوكّل على الله، والثاني: عقل الناقة المرادُ به الأخذ بالأسباب مع التوكّل، إذ فيه إشارةٌ إلى حديثِ الأعرابي المشهور بين الناس، حتى صار مثلاً: «اعقلها وتوكّل» وفي رواية: «قيّدها وتوكّل» يعني ناقته، فلم يأذن له ﷺ أن =

جعلَه اللهُ مُرْشداً، ويعلمَ مع ذلك أنْ ليسَ كلُّ الأمرِ بيدِه، وأنَّ مِنَ الأقدارِ ما لا تدركُه الأفكارُ، وهذا صحيح، ولمّا ذَكَرَ النبيُّ ﷺ القَدَرَ سألهُ بعضُ أصحابه: ألا نتّكل؟ فقال: «اعمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» رواه البخاري [٤٩٤٩] ومسلم [٢٦٤٧].

* * *

ومن أغربِ الغرائبِ أنَّ هؤلاء الإفرنج الذين لا يفتؤون ينعتون الإسلام بالجبرية، وينسبونَ تأخُّرَ المسلمين إلى هذه العقيدة ـ التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين ـ يذهلون عمّا هو واردٌ في الإنجيل من آياتِ القضاءِ والقدَرِ، التي تماثِلُ ما في القرآن، وقد تزيدُ عليه، مثل قوله: «لا تسقطُ شعرةٌ من رؤوسكم إلا بإذنِ أبيكم السماوي»، ومثل آيٍ كثيرةٍ لو أردتُ استقصاءَها لطالَ المقالُ.

ولا نجدُ في الإفرنجِ الذين هم مُغرَمونَ بالعمل، وهائمونَ وراءَ الكسبِ، ومنكِرون للقضاءِ والقدَر في الجملةِ، إلاَّ مَنْ يقرأ الإنجيلَ الشريفَ، ويقدّسه، ويعجَبُ بمبادئه السامية كما نعجَبُ بها نحنُ.

فما بالُهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر؟! وما بالهم لم يصفوا أقوالَ المسيح صلوات اللهِ عليه بالجبرية؟! ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

= يتركها توكلاً على الله تعالى. (ر)

وحقيقةُ الأمرِ أنَّ كلَّ ما هو واردٌ في الإنجيل؛ وكلَّ ما هو واردٌ في القرآن من آياتِ القضاءِ والقدرِ إنَّما كان مقصوداً به سبقُ علمِ اللهِ بكلِّ ما يقع[1]، ولم يكن مقصوداً به نفيُ الاختيارِ، والتزهيدُ في الكسبِ.

وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك مِنْ مواعظِ الإنجيلِ الشريف ما يدلُّ على ما عزاه القرآنُ الكريمُ إلى صُحُفِ إبراهيم وموسى، أي وغيرهما من رسل الله ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٨ ـ ٤١].

---

(١) هذا التفسيرُ قولٌ لبعض المتكلّمين، وهو أنَّ تعلّقَ علمِ اللهِ بوجودِ المخلوقاتِ في الأزل هو القضاء، ووجودُها على وفق العلم هو القدر، وقال بعضهم: إنَّه تعلّقُ الإرادةِ... إلخ. والتحقيقُ أنَّ القدَرَ والمقدار هو النظام الذي جرت به سننُ اللهِ تعالى في التكوين والتدبير، والأسباب والمسببات، كما يُفهَمُ من نصوصِ الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقوله في نظام جعل النطفة في الرحم: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]، وقد حقَّقْنا المسألةَ في (المنار) و(التفسير) مراراً. (ر)

المسلمون الجامدون فتنةٌ لأعداءِ الإسلام وحجَّةٌ عليه:

ونعودُ إلى المسلمِ الجامدِ فنقول: إنَّه هو الذي طرّق لأعداءِ الإسلام على الإسلام، وأوجدَ لهم السبيلَ إلى القالةِ بحقّه، حتى قالوا: إنَّه دينٌ لا يَأْتَلِفُ مع الرقيِّ العصريِّ، وإنَّه دينٌ حائِلٌ دونَ المدنيّةِ.

والحقيقةُ أنَّ هؤلاء الجامدين هم الذينَ لا تأتَلِفُ عقائدُهم مع المدنيّة، وهم الذين يحولونَ دونَ الرقيّ العصريّ، **والإسلامُ براءٌ من جماداتِهم هذهِ.**

إنَّ الإسلامَ هو مِنْ أصلِه ثورةٌ على القديمِ الفاسد، وجبٌّ[1] للماضي القبيح، وقطعُ كلِّ العلائقِ مع غيرِ الحقائق، فكيفَ يكونُ الإسلامُ مِلَّةَ الجُمود؟ والقرآنُ هو الذي جاءَ فيه من قصّة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤]، وجاء فيه: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧١ ـ ٧٧]، وجاء فيه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ

---

(١) جبَّ: محا.

ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤]، وجاء فيه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وجاء فيه: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وغير ذلك من الآياتِ الداعيةِ إلى الثورةِ على القديم إذا لم يكنْ صحيحاً، ولم يكن صالحاً.

على أنَّ الذين يفهمونَ الإسلامَ حقَّ الفهمِ يرحّبون بكلّ جديد لا يعارِضُ العقيدةَ، ولا تُخشى منه مفسدةٌ. ولا أظنُّ شيئاً يفيدُ المجتمعَ الإسلاميَّ يكونُ مخالِفاً للدّين المبنيِّ على إسعادِ العِباد.

أفلا ترى علماءَ نجدٍ ـ وهم أبعدُ المسلمين عن الإفرنجِ والتفرنُج، وأنآهم عن مراكز الاختراعات العصرية ـ كيف كانَ جوابُهم عندما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيَّدهُ اللهُ ـ في قضيّة اللاسلكي والتليفون والسيارة الكهربائية؟ أجابوه أنّها محدثات نافعة مفيدة، وأنَّه ليسَ في كتابِ اللهِ ولا في سنّةِ رسوله ﷺ لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ما يمنعُها.

أفليسَ الأدنى لمصلحةِ الأُمّةِ أن تَقْدِرَ الدولةُ على معرفةِ أيِّ حادث يحدُثُ بمجرَّدِ وقوعِه حتى تتلافى أمرَه؟ أفليسَ الأنفعُ للمسلمينَ أن يتمكَّنَ الحاجُّ ببضعِ ساعاتٍ من اجتيازِ المسافاتِ،

التي كانت تأخذُ أياماً وليالي.

لقد سألتُ الشيخ (محمد بن علي بن تركي) من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التليفون واللاسلكي فقال لي: **هذه مسألةٌ مفروغٌ منها، وأمرُ جوازِها شرعاً هو مِنَ الوضوحِ بحيثُ لا يستحقُّ الأخذَ والردَّ.**

ولم تكن مقاومةُ الجديدِ خاصّةً بجامدي الإسلام، فقد قاومتِ الكنيسةُ في النصرانيّة كلَّ جديدٍ تقريباً من قولٍ أو عملٍ، ثم عادتْ فيما بعد فأجازته. ولما قال (غاليله)[1] بدورانِ الأرضِ كفَّرته، ولا يزالُ يوجَدُ إلى اليومِ من أحبارِ النصارى من يكفِّر كلَّ مخالِفٍ لما جاءَ في (التوراة) من كيفية التكوين، ومن سنتين حُوْكم أحدُ المعلّمينَ في محاكم إحدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين، ومُنِعَ من التدريس، ولكنَّ هذا لا يمنعُ سَيْرَ العِلم في طريقه[2].

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون، والمسلمُ

---

(١) غاليلو غاليلي (Galileo Galilei): فيزيائي وفلكي إيطالي، أثبتَ صحة نظرية كوبرنيكوس (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م). (م)

(٢) وقد تألّف في إنكلترة وأمريكة حزبٌ دينيٌّ جديدٌ، أو جمعيةٌ للدعوة إلى الإيمان بظواهر (التوراة) في الخَلْقِ والتكوينِ وكلِّ شيءٍ من غيرِ تأويل (راجع م/ ٧٢٣). (ر).

الجامدُ يحارِبُ كلَّ علمٍ غير العلم الدينيّ التقليديّ الذي ألِفَه، حتى إنَّه ليحارِبُ من لا يعتدُّ في دينه إلا بالكتاب والسنّة، وينسى أنَّ العلومَ الطبيعيّة، والرياضيّة، والهندسة، وجرّ الأثقال، والفَلَك، والطبّ، والكيمياء، وطبقات الأرض، وكلَّ علمٍ يفيد الاجتماع البشري: هي علومٌ دينيّةٌ، إنْ لم تكنْ مباشرةً فمن حيث النتيجة[1].

وكم جرى تدريسُ هذه العلوم في الأزهر والأموي، والزيتونة، والقرويين، وقرطبة، وبغداد، وسمرقند، وغيرها عندما كان للإسلامِ دولٌ كبارٌ وأعاظم رجال، وكم نبغَ في الإسلامِ من عظماء، جمعوا بين الحكمةِ والشريعة، ونظموا بين الحديث والرياضة، وإنَّ أكبرَ فيلسوفٍ عربيٍّ اشتهرَ اسمُه في أوروبة هو القاضي (ابن رشد)[2] وقد كان من أكابر الفقهاء.

---

(١) أي من باب قول العلماء: ما لم يتمُّ الواجبُ المطلقُ إلا به فهو واجبٌ، وقد بيّنّا في تفسير ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] أنَّ آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبةٌ بنصّ هذه الآية، لأنَّها من القوة المستطاعة للمسلمين، كما هي مستطاعةٌ لغيرهم، فليس وجوبُها بقاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) بل بنصّ القرآنِ ودلالةِ المنطوقِ منه، فراجع تفسيرها في تفسير المنار: ١٠/ ٦١. (ر).

(٢) محمد بن أحمد القرطبي، ابن رشد الحفيد، له (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه المقارن (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ). (م)

مدنيّة الإسلام

أمَّا زعمُ مَنْ زعم أنَّ الإسلام لم يتمكَّن من تأسيس مدنيّة خاصَّة، والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة، فهو خرافةٌ يموِّه بها بعضُ أعداء الإسلام من الخارج، وبعضُ جاحديه من الداخل، أما القسم الأول **فلأجل أن يصبغوا المسلمينَ بالصبغةِ الأوروبية**، وأما القسم الثاني **فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذورَ الإلحاد**.

نحنُ لا ننكِرُ تأثيرَ الدينِ في المدنيّة، ولكنّنا لا نسلِّمُ بأنَّه يصحّ أن يكون لها ميزان، وذلك لأنّه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم، فتتفلَّتُ من قيودِه، وتفسد أخلاقُها، وتنهار أوضاعُها، **فيكونُ فسادُ الأخلاقِ هو علَّةُ السقوطِ**، ولا يكونُ الدين هو المسؤول.

وكثيراً ما تطرأُ عوامِلُ خارجيّة غيرُ منتظرةٍ، فتتغلَّبُ على ما أثّلته الشرائعُ من حضارة، وتزلزل أركانها، وقد تهدِمُها من بوانيها، ولا يكونُ القصورُ من الشريعةِ نفسِها.

فتأخُّرُ المسلمينَ في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة؛

بل مِنَ الجهلِ بالشريعةِ، أو كانَ مِنْ عدمِ إجراءِ أحكامِها كما ينبغي.

ولمَّا كانت الشريعةُ جاريةً على حقِّها كان الإسلامُ عظيماً عزيزاً، **وأيُّ عظمةٍ أعظمُ ممّا كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً.**

ومدنيّة الإسلام قضيّةٌ لا تقبَلُ المماحكة، إذ ليس من أُمَّةٍ في أوروبة ـ سواء الألمان أو الفرنسيس أو الإنكليز أو الطليان... إلخ ـ إلا وعندهم تآليف لا تُحصى **في مدنية الإسلام**، فلو لم تكن للإسلام مدنيّةٌ حقيقيةٌساميةٌ راقيةٌ مطبوعةٌ بطابعه، مبنيّةٌ على كتابِه وسنّته، ما كان علماءُ أوروبة حتى الذين عُرِفوا منهم بالتحامل على الإسلام، يكثرون مِنْ ذِكْرِ المدنيّة الإسلاميّة، ومن سرد تواريخها[1]، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيّات، ومن تبيين الخصائص التي انفردت بها.

فالمدنيّةُ الإسلاميةُ هي من المدنيات الشهيرة، التي يزدانُ بها التاريخُ العام، والتي تغصُّ سجلاّتُه الخالدةُ بمآثرها الباهرة.

---

(١) وقد ألّفَ عُصبةٌ من الأوروبيين المستشرقين مَعْلَمةً اسمُها (إنسيكلوبيدية الإسلام) وتحامَلَ فيها بعضُهم على الإسلام، وبخسوه من أشيائه، ولكنّهم لم يقدروا أن يجحدوا انفرادَه بمدنيّةٍ خاصةٍ به.

وقد بلغت بغدادُ في دور المنصور[1] والرشيد[2] والمأمون[3] من احتفالِ العمارةِ، واستبحارِ الحضارةِ، وتناهي الترفِ والثروةِ، ما لم تبلغْهُ مدنيّةٌ قبلَها ولا بعدها إلى هذا العصر، حتى كان أهلُها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان، وكانتِ البصرةُ في الدرجةِ الثانية عنها، وكانَ أهلُها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق، والقاهرة، وحلب، وسَمَرْقَنْد، وإصفهان، وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام أمثلةً تامّةً، وأقيسةً بعيدةً في استبحارِ العمران، وتطاول البنيان، ورفاهةِ السكان، وانتشارِ العلم والعرفان، وتأنّل الفنونِ المتهدّلة الأفنانِ.

وكانتِ القيروان، وفاس، وتلمسان، ومرّاكش في

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن العباس أبو جعفر المنصور (٩٥ ـ ١٥٨هـ = ٧١٤ ـ ٧٧٥م) ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عُني بالعلوم من ملوك العرب، وهو باني مدينة بغداد. (م)

(٢) هارون بن محمد بن المنصور، أبو جعفر (١٤٩ ـ ١٩٣هـ = ٧١٦ ـ ٨٠٩م) خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم، وفي عصره بلغت الدولة العباسية أوج ازدهارها. (م).

(٣) عبد الله بن هارون الرشيد، المأمون العباسي، أبو العباس (١٧٠ ـ ٢١٨هـ = ٨٧٦ ـ ٨٣٣م) سابع الخلفاء من بني العباس، وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه. (م)

المغرب، أعظم من أن يطاوِلَها مطاوِلٌ، أو يناظرُها مُناظر، أو أن يكاثرَها مكاثِرٌ في ممالك أوروبة، حتى هذه القرون الأخيرة.

وكانت قرطبةُ مدينةً فذّةً في أوروبة، لا يدانيها مُدانٍ، وكان عددُ سكّانِها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان فيها نحو سبعمئة جامع، عدا المسجد الأعظم، الذي لمّا زُرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قِبَلِ الحكومة الإسبانيولية: إنَّه يسعُ بحسبِ مساحتِه خمسينَ ألف مصلٍّ في الداخل، وثلاثين ألفَ مصلٍّ في الصحن، فجملةُ مَنْ يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين.

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء، رأيناها آثارَ مدينة لا آثارَ قصرٍ واحدٍ، وعلمنا أنَّها تمتدُّ على مسافة تسعمئة متر طولاً في ثمانمئة متر عرضاً، والإسبانيون يقولون: مدينة الزهراء.

وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارِها: إنَّهم يرجون الإتيان على كشفِها كلِّها من الآن إلى خمسينَ سنة.

وحسبُكَ أنَّ غرناطة التي كانت حاضرةَ مملكةٍ صغيرةٍ في آخرِ أمرِ المسلمين بالأندلس، لم يكن في أوروبة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدةٌ تضاهيها ولا تدانيها، وكان فيها عندما سقطتْ في أيدي الإسبانيول نصفُ مليون نسمة، ولم تكن وقتئذٍ عاصمةٌ من عواصم أوروبة تحتوي نصفَ هذا العدد.

وحمراءُ غرناطة لا تزالُ يتيمةَ الدَّهْرِ إلى اليوم[1].

هذه لمحةٌ دالّةٌ من مآثرِ حضارةِ الإسلامِ، وغُررِ أيامه، وإلا فلو استقصينا كلَّ ما أثر المسلمون في الأرض من رائعٍ وبديعٍ لم تسع ذلك الجلودُ الكثيرةُ المرصوفةُ طبقاً فوق طبق.

وكم حرَّرَ المؤرّخون الأوروبيون تحت عنوان (مدنية الإسلام) كتباً قيّمةً ومجاميعَ صورٍ تأخذُ بالأبصار، وإنَّ أشدَّ مؤرّخي الإفرنجِ تحاملاً على الإسلام لا يتعدَّى أن يحاوِلَ التصغيرَ من شأنِ مدنيتِه، وأن يُنكِرَ كونَه أبا عُذرتها، فقُصارى هذه الفئة أن ينكروا كونَ المسلمين قد ابتكروا علوماً، وسبقوا إلى نظريات صارتْ خاصّة بهم، وغايتهم أن يقولوا: إنَّ المسلمينَ لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا، وكانوا واسطةً بين المشرقِ والمغرب.

وهذا القولُ مردودٌ عند المحققين، الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها، وحقائقَ كشفوها، وآراء سبقوا إليها، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه، وما نشروه ونقلوه، ومن استرقَ شيئاً وقد استرقّه، فقد استحقّه.

---

(١) انظر شرح الأمير لمعالم الحضارة الإسلامية في الأندلس في كتابه (الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية) الذي كتبه غِبَّ زيارته للأندلس عام (١٩٣٠م) وقد طبع منه ثلاثة مجلدات من أصل تسعة. (م)

وبعدُ؛ فلم نعلم مدنيّةً واحدةً من مدنيات الأرضِ إلا وهي رشحُ مدنيات سابقة، وآثار آراء اشتركت بها سلائلُ البشريّة، ومجموعُ نتائج عقول مختلفة الأصول، ومحصول ثمراتِ ألبابٍ متباينة الأجناس.

الردُّ على حُسَّادِ المدنية الإسلامية المكابرين:

أينسى حُسادُ الإسلامِ والمكابِرونَ في عظمة فَضْلِه، الزاعمون أنَّه إنَّما نقلَ وتعلَّمَ، وقلَّد واقتدى، وأنَّه إنّما صلّى وراءَ غيره: أنَّ الغربَ كانَ غلبَ على الشرق، وأنَّ المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلامُ كان أخنى عليها الذي أخنى على لبد[1]، وأنَّه هو الذي جدّدها، وأحيا آثارها، وأقال عثارها؟ وأنَّها بعد أن كانت قد انمحَت، ولحقت بالغابرين، أبرزَها مِنْ أصدافِها، وجلاها من بعدِ أن كانت ملفوفةً بغلافها، ونشرَها في الخافقين، وبلجها كفلقِ الصبحِ لكلِّ ذي عينين، وأضفى عليها لباسَ الإسلامِ الخاصّ،

---

(١) أي الدهر، ولبد اسمُ آخرِ نسرٍ من نسور لقمان بن عاد، سمّاه بذلك لأنه لبد فبقي لا يذهب ولا يموت، وتزعم العرب أنَّ لقمان خُيِّرَ بين بقاء سبع بعرات سُمْرٍ من أَظْبٍ عُفْرٍ، في جبلِ وَعْرٍ، لا يمسُّها القَطْرُ، أو بقاء سبعة أنسر، كلَّما هلك نسر خلفه بعده نسر آخر، فكان آخرَ نسوره لبد (اللسان: لبد). (م)

ودبّجَها بديباجةِ القرآن، التي لم تفارقها في شرقٍ ولا غربٍ، ولا سهلٍ ولا وعرٍ، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الإفرنج ـ ممّن لم يعمِه الهوى، ولم يحدْ في التحقيق عن مَهْيَع الهدى ـ على أن اعترفوا بأنَّ مدنيةَ الإسلامِ لم تكن نسخاً ولا نقلاً، وإنَّما هي قد نبعتْ من القرآن، وتفجَّرت من عقيدة التوحيد.

فأمَّا ما ترجمتْه حضارةُ الإسلام من كُتب، وما أخذتْه عن غيرِها من علوم، وما أفادتْه في فتوحاتِها من منازعَ جميلةٍ، وطرائقَ سديدةٍ، أخذتْها عن غيرِها، فلا يقدحُ ذلك في بكارتِها الإسلامية، ومسحتها العربية، لأنَّ هذا شأنُ الحضاراتِ البشرية بأجمعِها، أن يأخذَ بعضُها عن بعض، ويكمِّلَ بعضها بعضاً، فالعلمُ الحقيقيُّ ينحصرُ في هذا الحديث الشريف: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ يَنْشُدُها ولو في الصِّين»[1] وهذِه من أقدسِ قواعدِ الإسلام.

وعلى كلِّ حالٍ لا يقدِرُ مكابِرٌ أن يكابِرَ أنَّ الإسلامَ كان له

---

(١) هذا مضمون حديثين:
أحدهما: «الحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها» رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، ورواه غيرُه بمعناه مع اختلاف اللفظ.
والثاني: «اطلبُوا العلمَ ولو بالصِّين»، وذكره الكاتب في موضعٍ آخر ص(١٣٧)، وهناك نذكر من أخرجه. (ر)

دورٌ عظيمٌ في الدنيا، سواء في الفتوحاتِ الروحيةِ أو العقليةِ أو الماديةِ، وأنَّ هذه الفتوحاتُ قد اتَّسقَتْ له في دورٍ لا يزيدُ على ثمانين سنة، ممّا أجمعَ الناسُ على أنَّه لم يتّسق لأمّةٍ قبلَه أصلاً.

وكان نابليون الأول لشدّة دهشتِه من تاريخِ الإسلام يقول في جزيرة (سانتة هيلانة): إنَّ العربَ فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غير.

وتأمَّل أيها القارئ في أنَّ قائل هذا القول هو (بونابرت) الذي لم تكن تملأُ عينيه الفتوحات مهما كانت عظيمةً.

وتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيْرِ صِغَارُهَا
وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيْمِ العَظَائِمُ[1]

فهذا رجلٌ عظيمٌ جداً، استعظمَ حادثَ العرب، الذي لم يسبق نظيره في التاريخ، وقد بقيَ دورُ العربِ هو الأوَّل في وقتِه، ولبثوا وهم المسيطرون في الأرض، لا يُضارِعُهم مضارع، ولا يغالِبُهم مغالب، مدَّةَ ثلاثةَ قرونٍ أو أربعة، ثم أخذوا بالانحطاطِ، وجعلَتْ ظلالُهم تتقلَّص عن البلدانِ التي كانوا غَلبوا عليها شيئاً

---

(١) بيت للمتنبي (ديوانه: ٣٧٤) من قصيدته السيفية التي مطلعها:
على قَدرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ (م)

فشيئاً، وذلك بفتورِ الهمم، ودبيبِ الفسادِ إلى الأخلاقِ، ونبذِ عزائمِ الدينِ، واتّباعِ شهواتِ الأنفس.

وأشدّ ما ابتُلوا به التنافسُ على الإمارات والرئاسات، ـ ولا سيما بين القيسية واليمانية ـ مما لولاه لدانت لهم القارّة الأوروبية بأجمعِها، وكانت الآنَ عربيةً كما هو المغرب.

فالمصائبُ التي حلَّتْ بالمسلمين هي مما صنعته أيديهم، وممَّا حادوا به عن النهجِ السويِّ، الذي أوضحَه لهم القرآنُ، الذي لمَّا كانوا عاملينَ بمُحْكَمِ آيهِ علَوا، وظهروا، وكانت لهم الدول والطوائل، فلمَّا ضعفَ عملُهم به، وصاروا يقرؤونه بدون عمل، وانقادوا إلى أهواءِ أنفسِهم من دونه، ذهبت ريحُهم، وولَّى السلطانُ الأكبرُ الذي كان لهم، وانتقصت الأعداءُ أطرافَ بلادِهم، ثمَّ قصدوا إلى أوساطها، ومازالَ الأعداءُ يفتحون من بلدانِ الإسلامِ حتى أصبحَ ثلاثمئة مليون مسلم تحت ولاية الأجانب، ولم يبقَ في العالم سوى (٧٠) أو (٨٠) مليون مسلم نقدرُ أن نقولَ: إنَّهم تحت ولايةِ أنفسِهم.

ولنضرب الآنَ بعضَ أمثلةٍ عن الأممِ الأُخرى لأجلِ المقابلةِ بيننا وبينهم، إذ كانت «بضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ».

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها:

كان اليونانيون قبلَ النصرانيّة أرقى أممِ الأرض، أو مِنْ

أرقى أممِ الأرضِ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة، وحاملي ألويةِ الآدابِ والمعارفِ، ونبغَ منهم مَنْ لا يزالونَ مصابيحَ البشريةِ في العلم والفلسفةِ إلى يوم الناسِ هذا.

وكان الإسكندر المقدوني[1] أعظمَ فاتحٍ عرفَه التاريخ، أو من أعظمِ الفاتحين الذين عرفهم التاريخ، حامِلاً للأدب اليوناني، ناشراً لثقافةِ اليونان بين الأمم التي غلبَ عليها، وما كانتْ دولةُ البطالسة[2] التي لمعت في الإسكندرية بعلومِها وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الإسكندر، ثم لم تزل هذه الحالة إلى أن تنصَّرَت اليونان بعدَ ظهورِ الدين المسيحي بقليل، فمذْ دانت هذه الأُمّة بالدين الجديد بدأت بالتردّي والانحطاط، وفقدِ مزاياها القديمة، ولم تزل تنحطُّ قرناً عن قرنٍ، وتتدهورُ بطناً عن بطنٍ، إلى أن صارت بلادُ اليونان ولايةً مِنْ جملةِ ولايات السلطنة العثمانية، ولم تعد إلى شيءٍ من النهوضِ والرُّقيِّ إلا في القرن الماضي، وأينَ هي مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية؟!

أفيجبُ أن نقولَ: إنَّ النصرانيّةَ كانت المسؤولةَ عن انحطاطِ اليونانِ هذا؟.

إنَّ القائلينَ بأنَّ الإسلامَ قد كان سببَ انحطاطِ الأممِ الدائنةِ

---

(١) ولد سنة ٣٥٦ق.م، ومات سنة ٣٢٣ق.م. (م)

(٢) أسسها بطليموس أحد قادة الإسكندر وخليفته في مصر. (م)

به لا مفرّ لهم من القول بأنَّ النصرانية قد أدَّت أيضاً إلى انحطاطِ اليونان، التي كانت من قبلها عنوان الرقيّ.

ثم كانت رومية[1] في عصرها الدولةَ العظمى، التي لا يُذكَرُ معها دولة، ولا يؤبَه في جانبِ صولتها لصولة، ولم تزل هكذا هي المسيطرةُ على المعمور إلى أن تنصّرت لعهد قسطنطين[2]، فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاطِ مادةً ومعنًى، إلى أنِ انقرضتْ أولاً من الغرب، وثانياً من الشرقِ، ولم تسترجع رومية بعد انقراضِ الدولةِ الرومانيةِ شيئاً من مكانتِها الأولى، وبقيت على ذلك مدة خمسةَ عشرَ قرناً حتى استأنفَت شيئاً من مجدِها الغابر، وما هي إلى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغتْهُ أيام الوثنية.

أفنجعلُ تنصُّرَ الرومانِ هو العاملُ في انحطاطِ رومة وتدحرجها عن قمّة تلك العظمة الشاهقة؟ لقد قال بهذا علماءُ كثيرون، كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الإسلام، وكلا

---

(١) رومية أو رومة، هي عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وقد سقطت في أيدي البرابرة في القرن الخامس الميلادي، وبسقوطها تنتهي العصور القديمة. (م)

(٢) هو قسطنطين الأول الكبير (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) مؤسس الدولة الرومانية الشرقية، وعاصمتها بيزنطة، التي سقطت في أيدي العثمانيين عام ١٤٩٢م، وبسقوطها انتهت العصور الوسيطة، وابتدأت العصور الحديثة. (م)

الفريقين جائرٌ حائدٌ عن الصواب.

فإنَّ لسقوطِ الرومانِ بعد فشوِّ الدّين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلِهم بعد أن تقبّلوا دعوةَ بولس إلى النصرانية أسباباً وعواملَ كثيرةً من فسادِ الأخلاقِ، وانحطاطِ الهمم، وانتشار الخنى والخلاعة، وشيوع الإلحاد والإباحة، ومن هرم الدول الذي يتكلَّم عنه ابن خلدون[1]، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية، منضمّة إليها غاراتُ البرابرة من الخارج، فكانت ثَمَّةَ أسبابٌ قاسرةٌ مؤدّيةٌ إلى السقوط، الذي كان لا بدّ منه.

فلو فرضنا أنَّ النصرانية لم تكن جاءت وقتئذٍ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث، ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب[2].

فدعوى بعض المؤرّخين الأوروبيين أن تغلّبَ المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها، وذهب بمدنيتها ليس فيه من الصحيح إلا كون الأوضاع الجديدة تذهبُ بالأوضاعِ القديمة، سنَّة الله في خلقه، وأنَّه في هيعة هذا التحوّل لا بدَّ من

---

(١) عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ = ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) المؤرخ الفيلسوف الفقيه، والعالم الاجتماعي البحاثة، مولده ومنشؤه بتونس، ووفاته بمصر. (م)

(٢) انظر كتاب (انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) لإدوارد جيبون. (م)

اضطراب الأحوال، وانحلال القواعد، واستحكام الفوضى، وإلا فلا أحدَ يقدِرُ أن يقولَ: إنَّ الوثنية أصلحُ للعمرانِ من النصرانية[1].

وهذه الدعوى كانت تكونُ أشبه بدعوى أعداء الإسلامِ،

---

(١) علماء المسلمين يعتقدون أنَّ النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلحُ لأنفسِ البشرِ من الوثنية الخالصة، ولكنّها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه أوروبة وغيرها، لأنّها ديانةٌ مبنيّةٌ على المبالغةِ في الزهدِ والخضوع لكلِّ حكمٍ دنيوي، والعمران لا يتمُّ ولا يسمو إلا بالسيادة والمُلْكِ والغنى، ومن قواعد الإنجيل: أنَّ الجملَ إذا دخل في ثقبِ الإبرة فالغني لا يدخلُ ملكوت السماوات.
ونعتقد أيضاً أنَّ جميعَ ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حقٌّ، وكان البشر في أشدِّ الحاجةِ إلى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتوّ، وأنَّ هذا كان تمهيداً للإسلام الدين الوسط المعتدل، الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة، فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمّن اعترافنا بحقيّة دينِ المسيحِ في نفسِه، وبكونِه من عندِ اللهِ تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له.
ومن وظيفتي أن أبيّن هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان. (ر)

الذين يزعمون أنَّ الشرقَ كان راتعاً في بحابح العمران، فجاءَ الإسلامُ، وطمسَ المدنيات الشرقية القديمة! لولا أنَّ الحقيقةَ هي كما قدَّمْنا أنَّ المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطَّت قبلَ ظهورِ الإسلام بكثير، وأنَّ الإسلامَ وحدَه لا غيرَه، هو الذي جدَّد مدنية الشرق الدارسة، واستأنفَ صولتَه الذاهبة الطامسة، وبعثَ تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر، كبغداد، والبصرة، وسمرقند، وبُخارى، ودمشق، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة، وهلم جرا، فإنْ كانت قد بقيت للشرقِ آثارُ مدنياتٍ قديمةٍ، فإنَّ الإسلامَ هو الذي وطَّدَ بوانيها، وطرّزَ حواشيها، وحمل السيفَ بيدٍ والقلمَ بيدٍ، إلى أبعدِ ما تصوّره العقلُ من حدودِ الأقطار، التي لم يسبقْ لشرقيٍّ أن وطأها بقدمِه.

فإذا كان الإفرنج الصليبيون من الغرب، وكان المغولُ أولئك الجراد المنتشِرُ من الشرق، قد تبَّروا ما علا الإسلامُ في تلك الممالك، ونسفوا عمرانَ هاتيك الحواضر، وكانت منافساتُ ملوكِ الإسلام الداخلية واتّباعهم للشهوات، وإمعانهم في الضلالات، ومحيدُهم عن جادة القرآن القويمة، وفقدُهم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة، قد قضت في الداخل على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج، فليس الذنبُ في هذا التقلّصِ ذنبَ الإسلام، ولا التَّبعة في هذا الانقلاب عائدةٌ على القرآن، وإنَّما الذنبُ هو ذنبُ الهمج من الإفرنج، وجنايةُ ذلك الجراد الزحّاف من المغول، وإنَّما هي تَبِعَةُ المسلمين، الذين

رغبوا عن أوامر كتابهم، واشتروا بآياته ثمناً قليلاً، إلا النادر منهم.

سبب تأخُّر أوروبة الماضي ونهضتها الحاضرة:

وأيضاً فقد تنصَّرت الأمم الأوروبية في القرن الثالث، والرابع، والخامس، والسادس من ميلاد المسيح، وبقيت أُممٌ في شرقيّ أوروبة إلى القرن العاشر حتى تنصَّرت، ولم تنهض أوروبة نهضتَها الحالية التي مكّنتها تدريجاً من هذه السيادة العظمى بقوّة العلم والفنّ إلا من نحو أربعمئة سنة، أي مِنْ بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة، ومنها بعد أن دانت به بسبعمئة سنة، ومنها بثمانمئة سنة... إلخ.

وهذه هي القرونُ المسمّاة في التاريخ بالقرون الوسطى، ولا نقول: إنَّ الأوروبيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلماتٍ بعضُها فوق بعضٍ، بل نقول: إنَّ العربَ كانوا أعلى كعباً منهم بكثيرٍ في المدنية بإقرار مؤرّخيهم، وبرغم أنف (لويس برتران) وأضرابه.

ومن الكتبِ المخرجةِ حديثاً الشاهدة بذلك (التاريخ العام) للكاتب الفيلسوف الإنكليزي (ولز) و(تاريخ مدنيات الشرق) لمؤلف إفرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه (غروسه) فالحقيقةُ التاريخيّة المجمَعُ عليها هي واحدةٌ في هذا الموضوع، لم يظهر ما ينقضُها ولن يظهرَ، وهي: **أنَّ العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذَ الأوروبيين، وكان الواحدُ من هؤلاء إذا**

تخرَّج على العرب تباهى بذلك بين قومه.

أفنجعلُ هذا التأخُّرَ الذي كان عليه الأوروبيون في القرونِ الوسطى مدَّةَ ألفِ سنة ناشئاً عن النصرانية، التي كانت دينَهم الذي يعضّون عليه بالنواجذ؟.

نعم إنَّ الأممَ البروتستانتية منهم تجعلُ مصدرَ هذا التأخُّر الكنيسةَ البابوية لا النصرانية مِنْ حيثُ هي، وتزعُمُ أنَّ نهضةَ أوروبة لم تبدأ إلا بخروج مارتن لوثر (Martin Luther) [1]، وجون كالفين (John Calvin) [2] على الكنيسة الرومانية.

وأما (فولتير) ومَنْ في حِزبه من أقطابِ الملاحدة فلا يفرِّقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت، وعندهم أنَّ جميعَ هذه العقائد واحدةٌ، وأنَّها عائقة عن العلم والرقيّ، ولهذا قال (فولتير) تلك الكلمة عندما ذُكِرَ لديه (لوثر) و(كلفين)، قال: «كلاهما لا يصلحُ أن يكونَ حَذَّاءً لمحمد»[3]، يريد أنَّ محمداً ﷺ بلغ من الإصلاحِ

---

(١) مصلح ديني ألماني (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م). (م)

(٢) مصلح ديني فرنسي (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م). (م)

(٣) ذكر (فولتير) هذه الجملة أمام البرنس (سيندورف) النمسوي الذي صار فيما بعد رئيساً لوزراء سلطنة النمسة، وعندما دخل بونابرت فيينّة كان هذا البرنس هو رئيسَ الحكومةِ فيها، وكان نقلُه هذه الجملة عن فولتير في أيّامِ شبابه، عندما اجتمع به في سويسرة، فقيّدَها في مذكّراته المحفوظة في خزانة كتب فيينة، =

ما لم يبلغا أدناه، مع اعتقادِ الكثيرين أنَّ مذهبهما كان فجرَ أنوارِ أوروبة[1].

والحقُّ الذي لا نرتابُ فيه أنَّ النصرانيةَ نفسَها لم تكن هي المسؤولةَ عن جهالةِ الإفرنجِ المسيحيين مدَّةَ ألف سنة في القرون الوسطى، بل للمسيحية الفضلُ في تهذيبِ برابرة أوروبة.

سببُ تأخُّر اليابان الماضي ونهضتها الحاضرة:

وهؤلاء اليابانيون هو وثنيون، ومنهم مَنْ هم على مذهب (بوذا) ومنهم من يُقال لهم: (طاويون)، وكثيرون منهم يتَّبعون الحكيم الصيني (كنفوشيوس).

ولقد مضى عليهم نحو ألفي سنة، ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة، ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم.

= وعنها نقلَتْها جريدةُ (الطان) ونحن نقلناها عنها. (ش)

(١) ونحن نعتقد هذا، وكان شيخنا الأستاذ الإمام [محمد عبده] وأذكياءُ مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه، ولكن بمعنى سلبي، وهو أنَّ هذا المذهب أضعف حَجَرَ الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها، وفهمها للدين ورأيها في الدنيا، وكان سببَ هذا المذهب ما سرى إلى أوروبة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلالِ العقلِ في فهمِ الدين، وعدم سيطرة أحد عليهم فيه، كما بيّنه شيخُنا في كتاب (الإسلام والنصرانية). (ر)

ثم نهضَ اليابانيون من نحو ستين سنة، وترقَّوا وعـزّوا، وغَلُظَ أمرُهم، وعلا قدرُهم، وصاروا إلى ما صارُوا إليه، ولم يبرحوا وثنيين، فلا كانت الوثنيَّةُ إذاً سببَ تأخُّرِهم بالماضي، ولا هي سببُ تقدُّمِهم الحاضر[1].

وقد تقاوتِ اليابان وروسية وتحاربتا، فتغلَّبت اليابان على روسية، مع أنَّ اليابانيين في العدد هم نصفُ [عدد] الروس، ولكن ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ اليابانيين أرقى من الروس، والحالُ أنَّ روسية عريقةٌ في النصرانية، واليابان عريقةٌ في الوثنية.

فليترك إذاً بعضُ الناسِ جعلَ الأديانِ هي المعيارُ للتأخّـر والتقدّم[2].

أفنقول من أجل هذا المثـال: إنَّ الإنجيلَ هو الذي أخَّـر روسية عن درجة اليابان، وأنَّ عبادةَ الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بِضَبْعِ[3] اليابان حتى سبقت روسية؟.

---

(١) انظر ما سلف من حديث الأمير عن نهضة اليابان، ص(٩١). (م)

(٢) هذا صحيحٌ في جملة الأديانِ إلا الإسلام، فقرآنُه وتاريخُه يثبتان أنَّه هو سـبب تقدُّم أهله حين اهتدوا بـه، وسبب تأخُّرهم حين أعرضوا عنه، كما بيَّن هذا أميرُ الكتّاب في رسالته هذه، فأظلمُ الظُّلْمِ أن يُحْمَّلَ سببَ تأخّرهم. (ر)

(٣) الضبع: العضد. (م)

إنَّ لهذه الحوادث أسباباً وعواملَ متراكمة، ترجع إلى أصولٍ شتّى، فإذا تراكمت هذه العواملُ في خيرٍ أو شرٍّ، تغلَّبت على تأثير الأديان والعقائد، وأصبحت فضائلُ أقوم الأديان عاجزةً بإزاء شرّها، كما أصبحت معايبُ أسخفِها غيرَ مؤثرة في جانب خيرها.

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدّم اليابان السريع، حتى نبيّن أنَّ اعتقاد عامّتهم (وجود حصان مقدّس يركبه الإلٰه فلان) لم يقف حائلاً دون تقدّمهم، المبنيّ على ما ركّب في فطرتهم من الحماسة، وما أوتوا من الذكاء، وما أورثهم نظام الإقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة.

وعندنا أمثلةٌ كثيرةٌ تكادُ لا تُحصى في هذا الباب، اجتزأنا منها بما ذكرناه. ولم نكن لنتعرَّضَ لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشّرين، وكثير من الأوروبيين على الإسلام، وزعمِهم أنَّه عنوان التأخُّر، وأنَّه رمزُ الجمود، وتحدُّثهم بذلك في الأندية والمجامع، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلّات والجرائدِ، وقولِهم: إنَّ الشجرةَ تُعرَفُ من ثمارِها، وإنَّ حالةَ العالمِ الإسلاميِّ الحاضرةَ هي نتيجة جمود الإسلام، وتحجّر القرآن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وحسبُكَ أنَّ المسيو (سان) المقيم الإفرنسي السامي في

المغرب ـ ينشر في العدد الأخير من (مجلة الإحياء) الإفرنسية مقالةً يتكلَّمُ فيها على يقظةِ المغربِ بعد (ليل الإسلام)! هكذا تعبيرُه.

فإن كانَ تأخُّرُ إحدى الممالكِ الإسلاميةِ حقبةً من الدَّهرِ يجبُ أن يُقالَ فيه: (ليل الإسلام) فكم كانَ ليلُ النصرانيّةِ طويلاً عندما بقيَتْ أوروبة المسيحيّةُ زهاءَ ألف سنة، وهي في حالـةِ الهمجيّةِ، أو ما يقربُ من الهمجيّة.

إنَّ إدخالَ الأديان في هذا المعترَك، وجَعْلَها هي وحدَها معيار الترقّي والتردّي، ليس من النصفةِ في شيءٍ.

أمَّا الإسـلامُ فلا جدالَ في كونـه هو سـببُ نهضةِ العربِ وفتوحاتِهم المدهشة، ممّا أجمعَ على الاعترافِ به المؤرّخون شرقاً وغرباً، ولكنّه لم يكن سببَ انحطاطِهم فيما بعدُ، كما يزعمُ المفترون، الذين لا غرضَ لهم سوى نشر الثقافة الأوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام، وبسط سيادة أوروبة على بلدانِهم، بل كان السببُ في تردّي المسلمين هو أنَّهم اكتفوا في آخر الأمرِ من الإسلام بمجرّدِ الاسم، والحالُ أنَّ الإسلامَ اسمٌ وفعلٌ.

* * *

حث القرآن على العلم

باعث للمسلمين على سبقهم لسائر الأمم في الرقي

العالمُ الإسلاميُّ يمكنُه النهوضُ والرقيُّ، واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة، إذا أرادَ ذلك المسلمون، ووطّنوا أنفسَهم عليه، ولا يزيدُهم الإسلامُ إلا بصيرةً فيه وعزماً، ولن يجدوا لأنفسِهم على العلم والفنّ خيراً من القرآنِ الذي فيه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، والذي فيه: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، والذي فيه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، والذي فيه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، والذي فيه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، والذي فيه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، والذي فيه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وفيه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وفيه: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

وفيه ما هو خاص بالأمة العربية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد زعمَ بعضُهم ـ ومن جملتِهم (سيكار) هذا الذي بالمغرب، وقد ألّف كتاباً في الطعن على الإسلام، وهو الذي يكتب في مجلة (مراكش الكاثوليكية) ـ أنَّ المراد بلفظة (العلم) في القرآن هو العلم الديني، ولم يكن المقصودُ به العلمَ مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم.

وقد أتى (سيكار) من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحقُّ أن يُرَدَّ عليه، لما فيه من المكابرة في المحسوس، وكلُّ من تأمَّل مواقعَ هذه الآيات المتعلّقة بالعلم وبالحكمة وغيرها، مما يحثُّ على السير في الأرض، والنظر والتفكير، يعلم أنَّ المراد هنا بالعلم هو العِلمُ على إطلاقِه، متناوِلاً كلَّ شيء، وأنَّ المرادَ بالحكمة هي الحكمةُ العليا، المعروفة عند الناس، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب، كما يدلُّ عليه العطف، وهو يقتضي المغايرة، ويعزّزُ ذلك الحديثُ النبويُّ الشهير: «اطلبوا العِلْمَ ولَوْ في الصّينِ»[1].

---

(١) تتمته: «فإنَّ طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم» رواه العُقيلي، وابن عدي، والبيهقي، وابن عبد البَرّ عن أنس، وفيه عند الأخير=

فلـو كان المرادُ بالعلم هو العلمُ الدينيُّ كما زعم (سيكار) ما كان النبيُّ ﷺ يحثُّ على طلبِه ولو في الصين، إذ أهل الصين وثنيون، لا يجعلُهم النبيُّ ﷺ مرجعاً للعلم الديني كما لا يخفى.

وفي بعضِ الآياتِ من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أنّ المرادَ بالعلمِ علمُ الكونِ، لأنَّه في سياقِ آياتِ الخلقِ والتكوين، وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان، وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام.

= زيادةٌ أخرى في فضل العلم، وله طرقٌ يقوّي بعضها بعضاً. (ر)
قلت: حديث «اطلبوا العلم ولو في الصين» قال الألباني في (ضعيف الجامع) رقم (٦٠٩) و(٩٠٧): موضوع، ويغني عنه ما صحَّ من الأحاديث في الحثّ على طلبِ العلمِ كقوله ﷺ: «من سلكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سَهَّلَ اللهُ له بهِ طريقاً إلى الجنة» رواه مسلم وغيره. (م)

وقد كُنَّا ظننا هذا الرجلَ على شيءٍ من حُبِّ الحقيقة، فلمَّا أنكر المدنيةَ الإسلاميةَ رددنا عليه في (المنار)، وجادلناه بالتي هي أحسن، وعظَّمنا من قدر المدنية المسيحية، ووقَّرنا منها، ورددنا على القائلين من الأوروبيين بأنَّ النصرانية كانت وقفاً لسير المدنية، وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك.

فكان من (سيكار) هذا أن نشرَ سلسلةَ مقالاتٍ تتضمَّن من الطعنِ على الإسلام ما لو جئنا نردّه لم نستغنِ عن إيراد شبه واعتراضات تتعلَّق بالدين المسيحي، مما نأبى أن نتعرَّضَ له، لأنَّه ليس من العدلِ ولا من الكياسة، ولا من حُسن الذوق، أن نغيظ إخواننا المسيحيين من أجلِ رجلٍ اسمه (سيكار) أو غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشّرين، هذا زائداً إلى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة، التي من قبيل قوله: (إنَّ العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق، وإنما هو العلم الدينيُّ فقط، لأنَّ القرآنَ لا يهمُّه شيءٌ من علوم الدنيا) فمكابِرٌ كهذا لا يستحقّ الجوابَ!!.

ثم علمنا أنَّ المسيو (سيكار) هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بإدارة الأمور الإسلامية، وأنَّه هو والمسيو (لويس برينو) مدير التعليم الإسلامي هناك، والقومندان (ماركو) مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات، والقومندان (مارتي) مستشار العدلية الإسلامية، ورهطٌ آخرون: هم الذين لعبوا الدور الأهم في قضية العمل لتنصير البربر.

وما كان استخدامُ فرنسة لهم في مهمّات كلُّها عائدةٌ للإسلام إلا على نيّةِ نقضِ كلِّ ما يقدرون عليه من بناءِ الإسلام بالمغرب، وستذوقُ فرنسة ولو بعدَ حينٍ وبالَ ما عملته وتعمله من التعرّضِ للدينِ الإسلامي، الذي تعهَّدت في معاهداتها باحترامِه.

إنا لا نريدُ لفرنسة إلا خيراً، ولكننا ننصحُ لها بالعدولِ عن هذه السياسة، التي هي على خطٍّ مستقيمٍ ضدَّ المبادئ التي تُعلِنُها عن نفسِها، من أنَّ الأديانَ في نظرِها على حدٍّ سواء. **فإنْ كانتِ الأديانُ عند الدولةِ الإفرنسية على حدٍّ سواء، فلماذا هذا الاجتهاد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الحثيثة في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية، وفي فصلهم عن الوحدة السورية**، والحال أنَّ العلويين هم فرقةٌ من الفرقِ الإسلامية كما لا يخفى.

وكذلك ننصحُ الإنكليزَ بالعدولِ عن دعايتِهم الدينيّة في السودان وأوغندة، ونصح لهولاندة بترك دعايتها الدينية بين مسلمي إندونيسية.

كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية:

يقولُ بعضُ الناس[1]: ما لنا وللرجوعِ إلى القرآنِ في

---

(١) أي: من ملاحدة المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحال أوروبة في عصبيتها الدينية. (ر)

ابتعاثِ همم المسلمين إلى التعليم، فإنَّ النهضةَ لا ينبغي أن تكونَ دينيَّةً، بل وطنيّةً قوميةً كما هي نهضةُ أهلِ أوروبة؟.

ونجيبهم: إنَّ المقصودَ هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية[1]، على شرطِ أنْ تتوطَّنَ بها النفوسُ على الخب[2] في حلبة العلم، ولكننا نخشى إن جرّدناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان، واتّباع الشهوات، مما ضررُه يفوّتُ نفعَه. فلا بدّ لنا من تربيةٍ علميةٍ سائرةٍ جنباً إلى جنبٍ مع تربيةٍ دينيةٍ.

وهل يظنُّ الناسُ عندنا في الشرقِ أنَّ نهضةً من نهضاتِ أوروبة جرت دون تربيةٍ دينيةٍ؟

وهل جرت نهضةُ اليابانِ دون تربيةٍ دينية؟!!.

أفلم يقل رئيس نظّار ألمانية في (الرايستاغ)[3] منذ ثلاث سنوات: إنّ ثقافتنا مبنيةٌ على الدين المسيحي؟ وهذا هو إعلانُ ألمانية التي هي المثل الأعلى في العلم والصناعة وإتقان الآلات والأدوات، لا ينازع في ذلك أحد، ولا أعداؤها.

أفتوجد جامعة في ألمانية أو إنكلترة أو غيرهما من هذه

---

(١) ولكنّ المسؤول عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون.
(٢) الخب: السير. (م)
(٣) مجلس النواب الألماني. (م)

الممالك الراقية دون أن يكونَ فيها علمُ اللاهوت المسيحي؟[1].

ثم إنَّهم عندما يقولون: في أوروبة نهضة وطنية، أو نهضة قوميـة، أو جامعة وطنيـة أو قومية، لا يكون مـرادُهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر، ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دمٍ واحدٍ، وإنّما الوطنُ والقومُ عندَهم لفظتان تدلاَّن على وطن وأمة بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً. وهذا الذي يناضلون عنه، ويستبسلون كلَّ هذا الاستبسال من أجله.

* * *

(١) وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة، والتربية المدرسية الابتدائية وجعلها دينية. (ر)

أسباب انحطاط المسلمين
في العصر الأخير

من أعظم أسباب انحطاطِ المسلمين في العصرِ الأخير فقدُهم كلَّ ثقةٍ بأنفسِهم[1]، وهو من أشدِّ الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلَّط هذا الداء على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاءَ عليلٌ يعتقِدُ بحقٍّ أو باطلٍ أنّ علّته قاتلته؟ وقد أجمعَ الأطبّاء في الأمراضِ البدنيّةِ أنَّ القوّة المعنوية هي رأسُ الأدوية، وأنَّ من أعظم عواملِ الشفاءِ إرادةُ الشفاء[2]، فكيف يصلحُ المجتمعُ الإسلاميُّ ومعظَمُ أهلِه يعتقدونَ أنَّهم لا يصلحون لشيءٍ، ولا يمكنُ أن يصلحَ على أيديهم شيءٌ، وأنَّهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا الأوروبيين في شيءٍ؟!!.

وكيف يمكنُهم أن يناهضوا الأوروبيين في معتركٍ وهم موقنون أنّ الطائلةَ الأخيرةَ ستكونُ للأوروبيين لا محالة؟.

---

(١) وهو الذي يسمّى في علم النفس مركب النقص، أو عقدة النقص (Inferiority Complex). (م)

(٢) انظر قصة (قنديل أم هاشم) للكاتب المبدع الأستاذ يحيى حقي رحمه الله. (م)

فصارَ مثلُهم مع هؤلاء مَثَلَ أولئك الأقران، الذين كان يبطشُ بهم سيدنا عليّ رضي الله عنه في وقائعه، فقد حدّثوا أنّه سُمِعَتْ له في صِفّين[1] أربعمئة تكبيرة، وكان من عادته كرَّم اللهُ وجهَه أنَّ يكبّر كلّما صرع قِرناً[2]، فقيل له في ذلك فأجاب: «كنتُ إذا حملتُ على الفارسِ ظننتُ أنّي قاتلُه، وظَنَّ هو أيضاً أنّي قاتِلُه، فكنتُ أنا ونفسُه عليه».

وهكذا أصبحَ المسلمونَ في الأعصر الأخيرة، يعتقدون أنّه ما مِنْ صراعٍ بين المسلم والأوروبي إلا سينتهي بمصرعِ المسلم، ولو طال كفاحُه. وقرَّ ذلك في نفوسِهم، وتخمَّرَ في رؤوسِهم، لا سيما هذه الطبقة التي تزعم أنّها الطبقة المفكِّرة العاقلة، المولعة بالحقائق، الصادفة عن الخيالات بزعمها، فإنَّها صارت تقرّر هذه القاعدة المشؤومة في كلِّ نادٍ، وتجعلُ التشاؤمَ المستمرَّ والنعابَ[3] الدائمَ من دلائلِ العقلِ وسَعة الإدراك، وتحسب اليأس من صلاحِ حالِ المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة، وما زالت تنفخُ في بوقِ التثبيط، وتبثُّ في سوادِ الأمّة دعايةَ العجزِ

---

(١) صفّين: موضع على شاطئ الفرات قرب الرقة كانت فيه وقعة عظيمة بين سيدنا عليّ بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما في غرّة صفر سنة ٣٧هـ انتهت بالاتفاق على التحكيم. (م)

(٢) قِرن: المثل والنِّدّ في الشجاعة أو التجارة وغيرها. (م)

(٣) النعاب والنعيب: صوت الغراب. (م)

إلى أنْ صارَ الاستخذاءُ دَيْدَنَ الجميعِ، إلا مَنْ رحِمَ ربك، وكانت روحُه من أصلِ فطرتِها قويةً عزيزةً.

ولم تقتصر هذه الفئة على القولِ بأنّ حالة المسلمين الحاضرة هي مترديةٌ متدنيةٌ لا تُقاسُ بحالةِ الإفرنجِ في قليلٍ ولا كثيرٍ، بل زعمتْ أنّ التعبَ في مجاراةِ المسلمينَ للإفرنج في علمٍ، أو صناعةٍ، أو كسبٍ، أو تجارةٍ، أو زراعةٍ، أو حربٍ، أو سلمٍ، أو أيٍّ منحًى من مناحي العمران ـ هو ضربٌ من المحال، وشغلٌ بالعبثِ لا يليقُ بالعاقل إتيانه، وكأنّ المسلمينَ من طينةٍ والإفرنجِ من طينةٍ أخرى، فعلوُّ الإفرنجِ على المسلمين أمرٌ لا بدَّ منه، وكأنَّه كُتِبَ في اللوحِ المحفوظ، وجفَّ به القلم، ولم يبقَ أمامَ المسلمين إلا أن يعلموا كونَهم طبقةً منحطّةً عن طبقةِ الإفرنج، ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة.

وكثيراً ما وقعت لي مجادلاتٌ مع هؤلاء المتفلسفين بالفارغِ، صغارِ النفوسِ، ولم يكن يدخلُ في عقولِهم المنطقُ، ولا يعظُهم التاريخُ، ولا يَنفعُ في إقناعهم علمُ الطبيعةِ ولا التشريحُ، ولا يحيكُ[1] بهم استنتاجٌ ولا قياسٌ، وذلك لما غلب عليهم من آفةِ الذلّ، ومرضِ الاستخذاء، وقد أحسّ الأوروبيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الروحية، الموافقة لمصالحهم

(١) لا يحيك: لا ينفع ولا يجدي. (م)

الاستعمارية، فصاروا يروّجونَها فيهم، ويقوّونَ عندهم هذه العقيدة، فانطبقَ على هؤلاء الناعقين بالبَيْنِ[1] الآيةُ الشريفة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

ولم يكن الفرنجة[2] وسُعاتهم ودعاتهم بملومين على ترويجِ هذه النظرياتِ التاعسة بين المسلمين، لأنّها ممّا يسهّل الاستعمارَ، ويمهّد طرقَه، ويكفيهم المقاتلات والمنازلات، ويوفّر عليهم المزاحمات والمسابقات، ويجعل لهم التفوُّقَ بلا نزاع، والتسلُّطَ دون جدالٍ، ولكنّ العجبَ كلَّ العَجَبِ من هؤلاء المسلمين، الذين أمرهم الله ليتّصفوا بالعزّة، ويتّسموا بالأَنَفة، ويستوفوا تمامَ الرجولية، كيف كانوا ينقادون لهذه الأضاليل، التي مآلها عبوديتُهم للأجانب؟! لقد صدق فيهم كلامُ الله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وأكثر ما كانوا يؤكّدونه للناسِ من عدمِ قابليةِ المسلمين هو استحالةُ قيامِهم بالمشروعات العمرانية والأعمال المادية، وكلّ ما يتعلّق به حسابٌ ورقم، أو مساحة وقياس.

فإذا قلتَ لهم: إنْ كانَ المسلمون لا يحسنونَ هذه العلوم كما تزعمون، فكيف استطاعوا أن يؤثروا هذه الآثار الباهرة، التي

---

(١) البين: الشتات والخراب. (م)

(٢) في الأصل: الإفرنجة. (م)

يؤمُّها السيّاحُ من أقاصي الدنيا، وكيف ملؤوا مصر، والشام، والعراق، والمغرب، وإيران، والهند، والقسطنطينية، وغيرها، مبانيَ ومؤسساتٍ تبهرُ الأبصارَ، وتحيّرُ الأفكار؟ وكانت لهم معاملُ ومناسِجُ ودورُ صناعاتٍ متنوّعة، وغير ذلك مما يُعدُّ في الصناعة من الطراز الأول.

أجابوك: قد كان هذا قبل أن يرقى الإفرنجُ هذا الرقيَّ الحديثَ، وقبل أن يكتشفوا أسرارَ الكون التي كشفوها، وغير ذلك مما ليسَ بجواب عن هذا الخطاب، والموضوع هو في وادٍ وهذا في وادٍ.

فنحنُ نريدُ أن نقول: إنَّ كلَّ مَنْ سارَ على الدربِ وصل، وإنَّ المسلمين إذا تعلَّموا العلومَ العصرية استطاعوا أن يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها الإفرنج، وإنَّه ليس هناك فرقٌ في القابلية البشرية، ولكن على شرط أن يَنْفُضَ المسلمون عن أنفسِهم غبارَ الخمول، ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت من أسبابِ شقائهم زمناً طويلاً، وهي أنَّ كلَّ عملٍ عمرانيٍّ في الشرقِ لا بدَّ من أن تُستعارَ له شركة أوروبية لتقومَ به، وإلا فلا يُستطاعُ عمله.

ولقد أتت التجاريب بعد ذلك بما يثبتُ فسادَ هذه النظرية بتمامها، وتمكَّن المسلمون في كثيرٍ من البلاد من إنشاءِ شركاتٍ صناعية وتجارية، وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة،

نجحت نجاحاً باهراً كذَّبَ مزاعمَ تلك الفئة المثبِّطة، وصيّرها موضوعاً للهزء.

ولمَّا عزمَ السلطان عبد الحميد الثاني العثماني[1] على مدّ سكة حديدية من دمشق إلى الحرمين الشريفين قُوبِلَ هذا المشروع أوانئذٍ بمزيدِ الاستغراب، تبعاً للعادة، ومن الناسِ من ضحكوا به، وقالوا: نحن نرى أنفسَنا عاجزين عن إنشاءِ طريقِ عجلاتٍ، فكيفَ نستطيعُ أن ننشئ سكة حديدية طولها يزيدُ عن ألفي كيلو متر؟ وأنّى لنا المالُ والعلمُ اللازمان لمشروعٍ عظيمٍ كهذا؟.

وأغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز عن القيام بهذا العمل أنَّ المهندسَ الألمانيَّ الكبيرَ (مايسنر) باشا، الذي انتدبه السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط هو نفسُه كان لا يعتقدُ إمكانَ إنشاءِ هذا الخط، وكان هذا الرجل صديقي، فسألتُه مرّةً عن رأيه فيه، فقال لي: إنَّه يرجو إيصاله إلى معان، وهي مسافة أربعمئة كيلو متر من دمشق، فأمَّا مَدُّه من معان إلى المدينة، فيكادُ

---

(١) هو السلطان الرابع والثلاثون من السلاطين العثمانيين، حكم ما بين عامي (١٢٩٤ ـ ١٣٢٧هـ = ١٨٧٨ ـ ١٩٠٩م) وكانت فترة حكمه عصيبةً، شهدت أحداثاً عظاماً، دعا إلى الجامعة الإسلامية للتصدّي للطورانية. انظر (السلطان عبد الحميد الثاني) للدكتور محمد حرب، طبع دار القلم بدمشق ضمن سلسلة أعلام المسلمين. (م)

يكون من المستحيل.

فسألتُه: هل ذلك من عدم وجود المال؟.

قال: على فرضِ وُجِدَ المال، فإنَّ دون إنشاء الخط موانعُ طبيعيـة، يتعذّرُ التغلّب عليها، فإنَّ السكةَ يلزمُ لها ماءٌ في كـلِّ محطّة، والماءُ لا يوجدُ إلا في محطات معدودةٍ، وإنْ أنشـأنا صهاريجَ تُملأ بماءِ المطر، لم يؤمن أنّ الحرارةَ في الصيف تُنَشِّفُ بشـدّتِها مياهَ الصهاريج، وهناك صعوبةٌ أُخرى، وهي أنَّ الخطَّ سيمتدّ في أمكنـةٍ كلُّها رمالٌ، وقد تهبُّ الرياحُ السافياء، فتأتي برمالٍ تغطّي الخطَّ، ولا يمكنُ منع ذلك إلا بزرعِ الحلفاء والقصب والطرفاء، وكلُّ هذا يلزمه ماء حتى ينمو، وأين الماء من تلـك الأراضي؟.

هذا كان كلام المهندس الكبير لي من جهة الطبيعة، ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من أعراب البادية.

فأمَّا أنا فكنتُ معتقداً خلافَ اعتقادِ الآخرين قائلاً بأنْ ليسَ ثمَّـةَ صعوبـاتٍ لا يُستطاعُ تذليلُها، وكنتُ مـن الذين ينـدّدون بالمتشائمين والمتهكمين، ونظمتُ في هذا المشروع قصيدةً أحثُّ بها الأمّة على التبرّع لأجلِه، وتبرَّعتُ أنا من جيبي بخمسة عشر جنيهاً، وذكـرتُ ما سيكونُ لهذا الخطّ من الفوائـد العمرانيـة والاقتصادية والعسكرية، فضلاً عن تسهيل الحج الذي هو هدفه الأسمى، وكان مطلع قصيدتي:

أَلاَ يا بَنِي الإِسْلاَمِ هَلْ مِنْ مُسَاعِدِ
لِفِعْلِ سَمَاوِيِّ المَثُوْبَةِ مَاجِدِ

فلمَّا طبعتُ القصيدةَ ونشرتُها سلقني الكثيرون من أولئك (الغربان) بألسنةٍ حدادٍ، وكأنّي كفرتُ في تنويهي بمشروع يربطُ الشامَ بالحجاز، ويختصِرُ المسافةَ بينهما على الحجّاج من أربعين يوماً إلى أربعة أيام، وهزؤوا ما شاؤوا، وتمنطقوا بقدر ما أرادوا. ولكنَّ كلَّ تلك الفلسفة لم تُجْدِهم فتيلاً، ونجزَ الخطُّ الحديديُّ من دمشق إلى المدينة المنوّرة، وهي مسافةُ ألف وأربعمئة كيلومتر، ولولا خَلْعُ السلطانِ عبد الحميد لكان قد تمَّ إلى البلدِ الحرام[1]، ولكن مِنْ بعدِه فترت الهمّةُ بإكمالِه، وجاءتِ الحربُ وعواقبُها فقضت بإهمالِه.

ثم إنَّ هذا الخطَّ جاء من أبدعِ الخطوطِ الحديديةِ في العالم، صادفتُ مرّةً فيه أحدَ كبراءِ مسلمي الهند من أعضاء مجلسِها الأعلى، وهو ممّن تثقّفوا ثقافةً إنكليزيةً محضةً، وتخرَّجَ من جامعةِ إكسفورد، فقال لي: لا يوجدُ في نفس إنكلترة سكةٌ

---

(١) كان السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عزم على مدّ خط الحديد من الشام إلى المدينة، ثم إلى مكة والطائف، فعسير فصنعاء اليمن، وذلك وقايةً لجزيرة العرب من عوادي الأعداء. انظر الارتسامات اللطاف، ص(٣٧٦) بتحقيقي. (م)

حديديةٌ تضاهي في الإتقانِ هذه السكة، ولو لم أشاهدها بعيوني ما صدقتُ بوجودِها.

وبالفعلِ لم يصدّق كثيرٌ من المسلمين أخبارَها، فأرسلوا وفوداً يشاهدونها بأعينهم، فكان المسافِرُ يصلُ من دمشقَ إلى المدينة في ليلتين، وكانت دمشقُ تستفيدُ كلَّ سنةٍ من هذا الخط ما يقارِبُ مئتي ألف جنيه، وعُمّرت القرى التي يمرُّ بها الخطّ، وارتفعت أثمانُ الأراضي ارتفاعاً مدهشاً، وتضاعَفَ عمرانُ المدينة المنوّرة أضعافاً، هذا فضلاً عما توفّر من المشاقّ والأخطار على الحجّاج والزائرين والتجّار والمسافرين.

وأما الصعوباتُ الطبيعية التي كانوا يقدّرونها فلم يصحَّ منها شيءٌ، وأمَّا الأعرابَ فلم يقعْ منهم على الخطّ أدنى اعتداء، وكان عند كلِّ محطةٍ من محاطّ الخطّ قلعةٌ فيها جندٌ للمحافظة، وكلّ تلك المحطّات والقلاع كانت مبنيةً أمتنَ بناءٍ. ولما كان لا يتاحُ لغيرِ المسلمين دخولَ أرضِ الحجاز، فكان إنشاءُ الخطّ أي القسم الداخل منه في الحجازِ كلّه على أيدي مهندسين مسلمين، حتى إنّ (مايسنر) باشا الألماني نفسَه لم يتجاوز في إشرافِه بلدةَ تبوك.

ولمّا ذهبتُ إلى المدينة المنوّرة زائراً النبيَّ ﷺ، وذلك سنة ١٣٣٠هـ، كنتُ أسمعُ أنّ عدمَ مدّ الخطّ الحديديّ من المدينة إلى مكة نشأَ عن اعتراضِ قبائلِ العربِ من (حَرْب) وغيرِها، وأنَّهم لا يسمحونَ بمرورِ الخطِّ في أراضيهم، ففحصتُ عن هذه القضية،

فوجدتُ أكثرها هراءً وافتراءً، وسألتُ شيوخَ القبائلِ عمّا يُقالُ مِنْ معارضتِهم في إنشاءِ السكة فقالوا: «لو كنّا معارضين لإنشائها لعارضنا ذلك مِنْ أوّلِ دخولِها في أرضِ الحجاز، والحالُ أنّنا كنّا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكلّ قوانا».

فسألتُهم التوقيعَ على عريضةٍ للدولة يطلبونَ فيها تمديدَ هذا الخطّ من المدينة إلى مكة، فوقَّعَ عليها جَمٌّ من أولئك المشايخ، ولم تكن الدولةُ عهدتْ إليَّ بهذه المهمّة، وإنَّما قمتُ بها خدمةً للوطنِ وللملّة، ولولا طروء الحرب العامة بعد ذلك بقليل لكان بوشِرَ بمدِّ الخطِّ الحديديِّ من المدينةِ إلى مكةَ.

فلمَّا انتهت الحربُ العامّـةُ واحتلَّتْ إنكلتـرة فلسطين، وفرنسة سورية، كان أوّل ما توجّهت إليه هِمَمُ الإنكليز والفرنسيس هو تعطيل هذا الخط الحديدي، الذي يربط القطر الشامي بجزيرة العرب، ويقرّب صلات المسلمين بعضهم ببعض[1].

وكم احتجَّ المسـلمونَ على تعطيلِ هاتين الدولتين لهذا الخطّ الحيوي للشام والحجاز، وكم أبدوا وأعادوا في أنَّ هذه السكّة الحديدية الحجازية كانت تركية قد جعلتْها من جملةِ أوقافِ المسلمين، فلا يحقُّ لدولةٍ أجنبيةٍ أن تعبثَ بأوقافِهم، فلم يكن

---

(١) انظر دور الإنكليز في نسف الخطّ الحديدي الحجازي في كتاب لورنس (أعمدة الحكمة السبعة). (م)

ذلك ليقنعَ تينك الدولتين بالاعتدال، ورفع الاعتداء.

ولا تزالُ هذه المؤامرةُ الفظيعةُ على هذا الحقّ المقدَّس من حقوق المسلمين نافذةً إلى يوم الناس هذا. فإذا قامَ شخصٌ مثلُنا يذكّرُهم بهذا الاعتداء القبيح، ضاقت صدورُهم به، ودسَّ عليه الإنكليزُ في السرِّ، وطعن عليه الفرنسيسُ في الجهرِ ونعتوه (بعدو فرنسة)، وما أشبه ذلك، والحالُ أنّنا إنّما نريدُ صلاحَ أحوالِ بلادِنا، ولا نضمِرُ لأحدٍ سوءاً.

والشاهدُ الذي نقصدُه هنا هو ما سبقَ إنشاءَ سكّة الحجاز من تشاؤمٍ كثيرٍ من المسلمين، واستهزائهم واستنكارِهم، وتأكيدِ أنَّه خطٌّ محالٌ إنشاؤه، ومشروعٌ يكونُ من قلّةِ العقلِ تعليقُ الأملِ به. وهذا مثالٌ من أمثلةٍ كثيرةٍ، لا يمكنُ استقصاؤها من كثرتِها، فقلَّما تدخلُ بلداً من بلدانِ الإسلامِ، ولا يوردون لك من هذه الأمثال.

وكما ظنَّ المسلمون أنَّهم لا يحسنون شيئاً من المشروعاتِ العمرانيـة، وأنَّه لا بدَّ لهم من الأوروبي حتى يُدْخِلوا على يـدِه الإصلاحَ في بلادِهم، وأنَّه من دونِ الإفرنجيّ لا يقدرون على أية عمارة، ولا مرفق ذي بال، كذلك ذهبوا إلى أنَّه لا حظّ لهم في الأعمالِ الاقتصاديةِ أصلاً، وأنَّ كلَّ مشروعٍ اقتصاديٍّ إسلاميٍّ صائرٌ إلى الحبوطِ إنْ لم تكنْ له أركانٌ إفرنجيَّةٌ، وقد طالَ نومُهم على هذه العقيدةِ الفاسدة، حتى لم يبقَ في بلادِهم شيءٌ اسمُه اقتصادٌ إلا كانت إدارتُه بأيدي الإفرنج أو اليهود، وحتى لو دعا

منهم داعٍ إلى تأليف شركةٍ تجاريةٍ أو صناعيةٍ أو زراعيةٍ لم يدخلها صاحِبُ رأسِ مالٍ من المسلمين إلا إذا كانتْ إدارتُها بيدِ إفرنجيّ أو يهوديّ. وكلمةُ الجميعِ عندهم: نحنُ لا يخرجُ مِنْ أيدينا عملٌ، ولا نصلحُ لشيءٍ.

وقد بقيَ اليهود والفرنجةُ يتمتّعون بخيراتِ بلادِ الإسلامِ قروناً وحِقباً طوالاً دون مزاحمٍ ولا مراغمٍ، ويستدرّون فيها أخلافَ[1] كلّ صنعةٍ، ويستورون زنادَ كلِّ مرفقٍ، إلا ما ليس له بال، حتى لو قدّر ما ضاع على المسلمين في ظلِّ هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغةٌ، وكأنَّ المسلمين لم يوجَدُوا في الدنيا إلا عَمَلَةً أو أَكَرَةً، يشتغلون بأيديهم، ولا يشتغلون بعقولهم.

وبهذا السبب خلا الميدانُ في بلادِ الإسلامِ لأصنافِ الأجانبِ يُركِضُون فيه جيادَ قرائحِهم وعزائمِهم، ويجمعونَ الثروات التي ليس وراءها متطلَّع لمزيدٍ، وذلك على ظهورِ المسلمين ومن أكياسهم، وقد يكثر التحدّثُ بما يصيبُ الأجانب من هذه المكاسب الطائلة، التي كان أهلُ الإسلام أولى بها، لأنّها من بلادِهم، ولا تحفزهم همّةٌ، ولا تأخذُهم غيرةٌ، فيجرّبوا الخَبَّ[2] في الحلبات الاقتصادية إلى أنْ نبغَ في مصرَ (محمد

(١) أخلاف: ضروع. (م)
(٢) الخبّ: السير السريع. (م)

طلعة باشا حرب)[1] فكان في هذا الباب أمّةً وحدَه، وأدركَ بواسع عقلِهِ، وثاقبِ فكرِهِ، أنْ ليسَ في هذا الموضوع شيءٌ يفوقُ طاقةَ المسلمين، ولا مما يتعذّر وجودُ أدواتِه عندَهم، وأنَّ قصورَهم فيه عن مباراة الأجانب لم يكن إلاّ من آثارِ ذلك التوهّم القديم، الذي هو أنَّهم لا يحسنونَ الجريَ في أيِّ ميدانٍ من ميادينِ الاقتصادِ، وقد وُجِدَتْ عند هذا الرجلِ في جانبِ رجاحةِ العقلِ وسدادِ الحُكْمِ همةٌ بعيدةٌ قعساءُ، ونزعةٌ وطنيّةٌ صافيةٌ من الأقذاءِ، سالمةٌ من الأهواء، فاجتمعت فيه جميعُ الشروطِ اللازمة لمن شاءَ أن يبدأ بالشرق بنهضةٍ اقتصاديةٍ تزاحِمُ بالمناكبِ وثباتِ الأجانبِ، وممّا يندرُ في الرجال الجمعُ بين الحسابِ الدقيق والخيالِ الواسع، وهما قد انتظما جنباً إلى جنبٍ في دماغ (طلعة باشا حرب) فكانت سعةُ خيالِه مساعدةً له على الإقدامِ نحو المشروعات، التي هي مظانّ الأرباح، وكانت دقة حسابه مساعدةً له على نجاحِها، وضمان أرباحها.

وبالاختصار اقتحمَ (طلعة حرب) معركةً هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقي، وعندما باشرَ جمعَ رأسِ المالِ الذي كانَ حدَّدَه لإنشاءِ بنكِ مصرَ، وهو ثمانونَ ألف جنيه، عانى في

---

(١) محمد طلعة بن حسن بن محمد حرب (١٩٢٣ ـ ١٣٦٠هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٤١م) زعيم مصر الاقتصادي ومؤسس بنك مصر. (م)

ذلك أهوالاً، ونحتَ جبالاً، وذلك لِمَا رانَ على عقولِ المسلمين، من أنّهم لا يقدِرُون على الاستقلالِ بعملٍ اقتصاديٍّ، وأنَّ كلَّ عملٍ منهم في هذا السبيلِ حابطٌ من نفسِه، هابطٌ على أُمِّ رأسِه.

فلمَّا أخذ (طلعت باشا حرب) يتقاضى أغنياءَ مصرَ المشاطرةَ في هذا المشروع لبّوا نداءَه حياءً منه، لا اعتقاداً بأنّه سيأتي بثمرةٍ، وبقيتْ ثقتُهم بأجمعِها في بنوكِ الأجانبِ، وما زالَ معوّلهم عليها إلى أن شاهدوا بأعينهم النجاحَ الذي كاد يكونُ معجزةً في نظرِهم، وارتفعَ رأسُ مالِ بنكِ مصر من ثمانين ألف جنيه إلى مليون جنيه، واحتوت خزائنُه من الودائعِ على عِدَّةِ ملايين من الجنيهات، واشتملَ على أملاك، وسلفات، وشركات متعدّدة متنوّعة، تقدَّر بملايين أخرى من الجنيهات، بحيث زادت الأموالُ التي تحتَ تصرّفِ البنكِ على عشرين مليون جنيه، وكلُّ هذا في ثماني عشرة سنة، أنشأ فيها (طلعة باشا حرب) و(مدحة باشا يكن) ورفاقهما على حسابِ بنكِ مصرَ (شركة مصر للغزل والنسيج) التي معملُها في المحلّة، هو من أكملِ وأعظمِ معاملِ الغزلِ والنسيجِ في العالم، يعملُ فيه ثمانيةَ عشرَ ألف عامل، ينذُرُ فيهم غيرُ المصريِّ، ويسدّ من المنسوجات القطنية ثلثَ حاجةِ القطرِ المصريِّ بأجمعِه، فيكونُ قد وفَّرَ على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنوياً كانت من قبلُ تخرجُ من جيوبِ المصريين، لتدخلَ في جيوبِ الأوروبيين.

وهناك من توابعِ بنكِ مصرَ (شركة مصر لنسج الحرير) و(شركة مصر للتمثيل والسينما) وكلُّ هذه نالت معروضاتُها الجوائزَ الكبرى في المعرضِ الدولي الباريزي سنة ١٩٣٧م، ثم (شركة مصر لمصايد الأسماك) و(شركة مطبعة مصر)، و(شركة مصر للطيران) و(شركة مصر للسياحة) وناهيك بـ(شركة مصر للملاحة البحرية) وما أنشأته من المنشآت الجواري [في البحر] كالأعلام مثل (زمزم) و(الكوثر) و(النيل) وغيرها مما كادَ يكونُ كالأحلام، فصار الحجَّاجُ يبلغون الحجازَ على بواخرَ يرونَ بها أنفسَهم في مثل قصورِ الملوكِ فراهةً ورفاهةً، وراحةً ونعيماً، ومقاماً كريماً، وصارَ سيّاحُ مصرَ الكثيرون إلى أوروبة في فصل الصيف يركبون تحت العلم المصري الشريف بواخرَ لو قُرِنَتْ ببواخرِ الأمم الأوروبية حلَّت بينها في الصفّ الأول، هذا بعد أن قضينا كلَّ هذا الدّهر نسيرُ ونسري في البواخرِ الأجنبيّة، ونؤدّي إليها أموالنا بلا سبب، سوى قصورِ هممنا عن إنشاءِ بواخرَ خاصة بأوطاننا، بها ركوبُنا، وعليها نقلُ بضائعنا.

وليس هنا محلُّ تفصيلِ مشروعات (طلعة باشا حرب) باعث النهضة الاقتصادية في الشرق، لنخوضَ في هذا العباب، ولا مقصدنا تمجيدُه والإشادةُ بمآثره، ولو بالحقيقة، وإنَّما كان إيرادُنا هذه القصّة على سبيل المثال، لما كان عليه المسلمون من الجُبْنِ في المواطِنِ الاقتصاديّةِ، إلى أن هبَّ هذا الرجلُ (مدير بنك

مصر) فأيقظَهم من سباتهم، وأعلمهم أنّهم رجالٌ كما الأوروبيون رجال، وأنّهم إذا شحذوا غرار عزائمهم، وأعملوا أسنّةَ قرائحِهم، قدروا على ما يقدر عليه الأجانبُ من الأعمال الاقتصادية الكبيرة.

وها نحنُ أولاءِ الآن نرى العاملينَ في بنكِ مصرَ وفي الشركاتِ المضافةِ إليه ثلاثين ألفَ مستخدمٍ وعاملٍ، كلُّهم مصريون إلا النادر الأندر.

وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية في كلِّ فنٍّ من فنونِها، وتولّدت عندَهم في أنفسهم ثقةٌ كانتْ محجوبةً عنهم من قبلُ، بحيثُ إنّ (أحمد حلمي باشا)[1] والسيد (عبد الحميد شومان)[2] من فلسطين أسّسا في القدسِ بنكاً كلُّ رأسمالِه خمسةَ عشرَ ألفَ جنيه، وتوفقا بِحُسْنِ إدارتِهما إلى أن صيّرا هذا (البنكَ العربيَّ) الوحيد في القطر الشامي من البنوك

---

(١) أحمد حلمي باشا (١٢٩٥ ـ ١٣٨٣هـ = ١٨٧٨ ـ ١٩٦٣م) مجاهد، من رجال الاقتصاد والسياسة والوطنية، صاحب (بنك الأمة) ورئيس حكومة عموم فلسطين. (م)

(٢) عبد الحميد شومان (١٣٠٧ ـ ١٣٩٤هـ = ١٨٩٠ ـ ١٩٧٤م) من كبار رجال الاقتصاد العرب، عصامي، ولد بفلسطين، وهاجر إلى أمريكة، ونجح نجاحاً باهراً، عاد إلى فلسطين، وأنشأ البنك العربي وفروعه، له إسهامات جليلة في خدمة العلم والعلماء. (م)

المعدودة ذوي الفروع الكثيرة صار يشتمِلُ على خمسمئةِ ألفِ جنيه.

وكذلك أسّسا بنكاً زراعياً، شاطرَ في تأسيسِه أكثرُ من خمسةِ آلاف مساهم من عربِ فلسطين، وبلغَ رأسُمالِه نيفاً ومئةَ ألفِ جنيه، فسدّت بهذين البنكين الأمةُ العربيةُ في فلسطين حاجتها، واستغنى ذوو الحميّة منها عن الالتجاءِ إلى بنوكِ الأجانب، وفهم الناسُ أنّ هؤلاءِ ليسوا فوق الشرقيين، وأنهم لا يعجزون.

إنَّما جئنا بهاتين المسألتين للاستدلال على الأضرار الفظيعة التي كان يحدِثُها بالمسلمين عدمُ ثقتِهم بأنفسِهم.

ولعلَّهم بدؤوا يتعافونَ الآن من هذا المرضِ الاجتماعيِّ المُهْلِكِ، واللهُ غالبٌ على أمرِهِ.

* * *

الإصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدّسة:

توالت على بلادِ الإسلام المقدّسة قرونٌ وأحقابٌ كانت فيها أشد البلاد افتقاراً إلى الإصلاح، وأقربَها إلى الفوضى، وأقلَّها أمنَةَ سُبُلٍ وراحةَ سكان، وأكثرها عيثاً وفساداً. وكانت هذه الحالةُ فظيعةً جداً مُخجِلَةً لكلِّ مُسلمٍ، مرمضةً لكلِّ مؤمنٍ، حجةً ناصعةً للأجانبِ على المسلمين، الذين لا يقدرون أن ينكروا ما في الحجاز من اختلالِ السُّبُلِ، واضطرابِ الحَبْلِ، مع كونِه هو مهد الإسلام، ومركز الحجيج العام، في كلّ عام، إلى بيت الله الحرام، والمشاعر العظام، ومهوى قلوبٍ يتأجَّجُ بها الغرام، لزيارةِ مرقدِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

كان الأجانبُ يستظهرونَ بهذه الحالة على دعوى أنَّ الإسلام لا يلتئم مع العمران، وأنّه هو والفوضى توءمان، وأنّه لو كان ديناً عمرانياً لما كانت تكون هذه الحالة السيئة في مركزِه، ولما عجزَ عن إقامةِ العدلِ والأمنِ في مأزرِه[1].

---

(١) حِماه. (م)

وحقيقةُ الحالِ هي أنَّ تلك الفوضى لم تنشأ إلاّ عن إهمالِ العملِ بقواعدِ الشرعِ الإسلامي، وعن إرخاءِ العنان لبعض الأمراء، الذين كانوا يلون أمر الحجازِ مدلّين على الناسِ بما لهم من النَّسَبِ النبويِّ الشريف، الذي كان يحولُ بين سلاطين الإسلام وبين تشديد الوطأةِ عليهم، أو إرهاف الحدّ فيهم، وقد كان هذا من خَطَلِ[1] الرأي، ومن التقصير في جانبِ الشرع، فإنَّ الشريعةَ الإسلامية لا تعرفُ نسباً ولا حسباً، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وإنَّ اللهَ تعالى قد جعلَ التقوى فوقَ كلِّ المناقبِ والمحامدِ، وقرَّرَ أنَّ «مَنْ قَصَّرَ به عملُه لم ينهضْ به نسبُه»[2]، ومن المرويِّ عن النبيِّ ﷺ: «ألا إنَّ بعضَ آل بيتي يرون أنفسَهم أولى الناسِ بي، وليس الأمر كذلك، إنما أوليائي المتقون، مَنْ كانوا، وحيثُ كانوا. ألا إنّي لا أجيزُ لأهل بيتي أن يفسدوا ما أصلحتُ».

هذا حديثٌ نقلَه لنا خاتمةُ المحدّثين المرحوم السيد (بدر الدين الحسني المغربي الدمشقي)[3] وكيف كانت درجةُ ثبوتِه فهو

---

(١) خطل: فساد. (م)

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) ولفظه: «ومن أبطأ به عملُه لم يسرعْ به نسبُه». (م)

(٣) هو محمد بن يوسف البيباني المراكشي (١٢٦٧ ـ ١٣٥٤هـ=

مطابقٌ لروحِ الشرعِ، تتفجَّرُ معانيه من كلِّ ناحيةٍ من الكتاب.

ولهذا كان سلاطينُ الإسلامِ من وقتٍ إلى آخر ينذرون من أمراء الحرمين من كانوا يظلمون الناس، ويبغون في الأرضِ بغير الحقّ، ولقد ذهبَ مثلاً ذلك الكتابُ الذي كتبَه أحدُ سلاطينِ مصرَ من المماليكِ إلى أحدِ أمراءِ مكّةَ المكرمة، وهو الذي يقول فيه: «اعلم أنَّ الحسنةَ في نفسِها حسنةٌ، وهي من بيتِ النبوّة أحسنُ، والسيئةَ في نفسِها سيئةٌ، وهي من بيتِ النبوّةِ أسوأُ، وقد بلغنا أنّك بدّلتَ حَرَمَ الأمنِ بالخيفةِ، وأتيتَ ما تحمرُّ له الوجوهُ، وتسودُّ الصحيفةُ، فإن وقفتَ عند حدِّكَ، وإلاّ أغمدنا فيك سيفَ جدِّك»[1].

ولا ينبغي أن يُفْهَمَ من هنا أنَّ هؤلاء الأمراء لم يكن فيهم إلا من يستحق هذا الوصف. كلا، فقد وُجِدَ فيهم الأمراءُ العادلون إلا أنه قد بقيت مع الأسفِ أحوالُ الحجازِ غير مستويةٍ وأعرابُ البادية يسطون على الحجّاج، وليس لداءِ معرّتهم علاج، وكانت كلٌّ من الدولة العثمانية والدولة المصرية ترسل طوابيرَ من الجندِ النظاميِّ مصحوبةً بالمدافعِ وسائرِ آلات القتالِ لأجل خفارةِ قوافلِ الحج،

= ١٨٥١ ـ ١٩٣٥م) محدّث الشام في عصره، وصاحب الدرس تحت قبّة النسر في الجامع الأموي، وشيخ مشايخ دمشق. (م)

(١) سيف جدّك: سيف النبيّ ﷺ، وهو الشرعُ الحنيف. (م)

وتؤدّي إلى زعماء القبائل الرواتبَ الوافرة، وكلُّ هذا لم يكن يمنع الأعرابَ ومَنْ لا يخافُ اللهَ من الدُّعار[1] من تخطّف الحجاجِ في كلِّ فرصةٍ تلوح لهم.

وكثيراً ما كانت قافلةُ الحجِّ تضطرُّ إلى الرجوع، وقد فاتَها الحجّ أو الزيارة، بعد أن قصدوا ذلك من مكانٍ سحيقٍ، وتكلّفوا بذلَ الأموال، وتجشّموا مشاقّ الأسفار في البرِّ والبحرِ، فكانوا يذوبون من الشوقِ على ما فاتَهم، ويتحرّقون من الوجدِ، ويبكونَ بصيِّبِ الدمعِ، والناسُ بأجمعِهم يحوقلون، ويقولون: «ليس لها من دون الله كاشفة» ذاهبين إلى أنّ سطو الأعراب هؤلاء داءٌ عضالٌ، لا تنفعُ فيهِ حيلةٌ ولا وسيلةٌ، وقد عمَّت بهم البلوى، وإلى اللهِ المشتكى.

وهكذا توالتِ القرونُ والحقبُ، والناسُ على هذا الاعتقاد، لا يتزحزحون عنه، إلى أنْ آلَ أمرُ الحجازِ إلى (الملك عبد العزيز بن سعود) منذ بضعَ عشرةَ سنةً، فلم تمضِ سنةٌ واحدةٌ حتى انقلبَ الحجازُ من مسبعةٍ تزأرُ فيها الضواري في كلِّ يومٍ، بل في كلِّ ساعةٍ، إلى مهدِ أمانٍ، وقرارةِ اطمئنانٍ، ينامُ فيها الأنام بملءِ الأجفانِ، لا يخشونَ سطوةَ عادٍ، ولا غارةَ حاضرٍ ولا بادٍ،

---

(١) الدعر: الخبث والفسق، والدعار هم قطاع الطريق للسلب والنهب، ولو أدى إلى قتل الأبرياء. (م)

وكـأنَّ أولئـكَ الأعـراب، الـذيـن روَّعـوا الحجيـجَ مّـدةَ قـرونٍ وأحقاب، لم يكونوا في الدنيا، وكأنّ هاتيكَ الذئاب الطُّلْسَ، تحوَّلت إلى حملان، فلا نهبَ ولا سلبَ، ولا قتلَ ولا ضربَ، ولو شاءت الفتاةُ البِكْرُ الآنَ أن تذهبَ من مكّةَ إلى المدينة، أو من المدينة إلى مكة، أو إلى أية جهةٍ من المملكةِ السعودية، وهي حاملةٌ الذَّهبَ والألماسَ، والياقوتَ والزمرُّدَ، ما تجرَّأَ أحدٌ أن يسألَها عمَّا معها.

ما من يومٍ إلاَّ وتُحْمَلُ فيه إلى دوائرِ الشرطةِ لُقَطٌ متعدِّدَةٌ، ويؤتى بضوالٍّ فقدَها أصحابُها في الطرق، وأكثـرُ مَنْ يأتي بها الأعرابُ أنفسُهم خدمةً للأمنِ العام، وإبعاداً للشبهةِ عنهم، وعن ذويهم، فسبحانَ محوِّلِ الأحوال، ومقلِّبِ القلوبِ، ووالله لا يوجدُ في هذا العصرِ أمنٌ يفوقُ أمنَ الحجازِ، لا في شرقٍ، ولا في غـربٍ، ولا في أوروبـة، ولا في أمريكة، وقد تمنَّى المسـتر (كراين) الأميركي صديقُ العرب الشهير في إحدى خطبه أن يكونَ في وطنِه أمريكة الأمنَ الذي رآه في الحجازِ واليمن.

وكلُّ مَنْ سكنَ أوروبة وعرفَ الحجازَ في هذه الأيام يحكمُ بأنَّ الأمنةَ على الأرواحِ والأعراضِ والأموالِ في البقاعِ المقدّسة هي أكمَلُ وأشمَلُ وأوثَقُ أوتاداً، وأشدُّ أطناباً منها في الممالكِ الأوروبيـةِ والأمريكيةِ، فأينَ أولئكَ الذين كانوا يقولـون: إنَّ الأعراب لا يقدرُ على ضبطِها إنسانٌ، وإنَّ سكانَ الفيافي هم غيرُ سـائرِ البلدان؟!

فها هـو ذا (ابن سعود) قد ضبطها بأجمعِهَا في مملكتِـهِ الواسـعةِ، ومحا أثـرَ الغاراتِ والثاراتِ بينَ القبائل، وأصبحَ كلُّ إنسانٍ يقدِرُ أن يجوبَ الصحارى وهو أعزلُ، ويدخلَ أرضَ كلِّ قبيلةٍ دونَ أنْ يعترِضَه معترِضٌ، أو يسألَه سائِلٌ إلى أينَ هو غادٍ، أو رائحٌ، ولو قيل لبشر: إنَّ بلاداً كان ذلك شأنُها من الفزعِ والهَولِ، وسفكِ الدماءِ وقطعِ الطرقِ، قد مَرَدَ أهلُها على هذا البغيِ وهذا العدوان، من سالفِ الأزمان، وإنَّه يليها ابنُ سعود، فـلا تمضي على ولايتـه لها سـنةٌ واحدةٌ حتى يطهّرَها تطهيراً، ويملأَها أمنـاً وطمأنينـةً، لظنَّ السـامعُ أنَّه يسـمعُ أحلامـاً أو خرافاتٍ، أو اتّهم القائلَ في صِحَّةِ عقلِه.

ولكنَّ هذا قد صارَ حقيقةً كليّةً، وقضيةً واقعيةً في وقـتٍ قصيرٍ، وما أوجدَته إلاّ همّةٌ عاليةٌ، وعزمةٌ صادقةٌ، وإيمانٌ بالله، وثقةٌ بالنفسِ، وعلمٌ بأنَّ اللهَ تعالى مؤيِّدٌ مَنْ أيَّدَهُ، ناصرٌ من نصرَه، يحثُّ على العملِ، ويكافىءُ العامِلَ، ويكرَهُ اليأسَ، ويقولُ لعبادِه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر ٥٦]

وقد سَـرَتْ بُشـرى الأمانِ الذي شـملَ البلادَ المقدَّسـةَ الحجازيـةَ فعمَّت أقطـارَ الإسـلامِ، وأثلجَتْ صدورَ أبنائِـه، وارتفعَـتْ عـن الحجـازِ تلـكَ المعـرّةُ التـي طـالَمـا وجـمَ لهـا المسلمونَ، وذلك بقوّةِ إرادةِ (الملك عبد العزيز بن سعود) والتزامِـه حدودَ الشـرعِ. ولكن ليسَ هذا كلَّ شيء، وقد بقيَتْ

حاجاتٌ في الصّدورِ، فلم تزلْ تعوزُ الحجازَ وسائلُ كثيرة للراحةِ والهناءِ، من قبيل الإصلاحات الماديّةِ العمرانية، التي يتوقُ إليها الحجّاج، ولا يجدونَها، وهي إصلاحاتٌ عصريةٌ لا طاقةَ للحجازِ بها مع قلّةِ الواردِ إلى بيت المالِ، وازديادِ الخرجِ على الدَّخلِ، وأيضاً مع استئثارِ أكثرِ بلادِ المسلمينَ بأوقافِ الحرمين الشريفين، وعدم استعمالها فيما وُقفت عليه[1].

وقد كان يتحتَّم على العالم الإسلامي أن يشاطِرَ من زمنٍ طويلٍ في إزاحةِ هذه العلل المادية، التي يتعذَّر على الحجازِ بحقٍّ أن يقومَ بها وحده، لا سيَّما أنَّ الحرمين الشريفين ليسا للعربِ وحدَهم بل لجميع المسلمين.

فلم تزل هذه المسألةُ موضوعَ الأماني، ومتّجه الآمال، والناسُ ينتظرونَ فيها الابتداءَ بعملٍ من الأعمالِ، إلى أن عقدتْ مصرُ عزمَها على هـذا الأمر، الذي تعتبرُ مصرُ جِدَّ مليئة[2] بـأن تضطلع به، وبأن تكونَ فيه السابقةُ والقدوة لغيرها.

ولم يطلَق على مصرَ لقبُ (كنانة الله في أرضه) عبثاً، بل هي

---

(١) انظر الرحلة الحجازية المسمَّاة (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدسِ مطاف) للمؤلّف، وهو تحت الطبع بتحقيقي. (م)

(٢) مليئة: غنية. ولعلها مصحفة عن قمينة أي جديرة. (م)

من قديمِ الدهرِ موئلُ الحجازِ وأنبارُ المُسنِتين[1] من أهله، وحسبُكَ ما قامتْ بهِ مصرُ عامَ الرّمادَةِ من ميرةِ الحجازِ بطلبِ سيدنا عمر إلى سيدنا عمرو رضي اللهُ عنهما، ومن بعد ذلك لم تشتدّ بأهلِ الحرمين لأوَاءٌ[2]، ولا عضَّتهم مسغبةٌ[3] بنابها، إلاّ أسرعت إليهم مصرُ بالإغاثةِ، وتفريجِ الكُربة، لم تتخلّفْ مصرُ عن هذا الواجب في وقتٍ من الأوقاتِ.

وفي هذه الأيام عندما اشتدَّ الشعورُ بوجوب إصلاحِ الحجازِ من الناحيةِ العمرانيةِ بعدَ أن أُزيحَتْ عِلّتُه من جهةِ تأمينِ السوابل، كانت مصرُ هي الناهِضَةُ لمدّ يدِ المساعدةِ إليه في هذا الشأن، وكأنّما كُتِبَ في اللوحِ المحفوظِ أنْ يكونَ (محمد طلعة باشا حرب) هو الطالعُ حرباً على الخللِ والفوضى والإهمالِ في عمرانِ الشرق، فوجّه شطراً من همّته العلياء شطرَ البيتِ الحرام، الذي قد أمرَنَا اللهُ بأنّنا حيثُ ما كُنّا نولّي وجوهَنا شطرَه، لئلاّ يكونَ

---

(١) أنبار المسنتين: الأنبار: مخازن الطعام، وتسمّى الآن (عنابر)، والمسنتين: المسحتين المعوزين. (م)

(٢) عام الرمادة كان سنة (١٨هـ)، وسُمّي بذلك لأنّ الأرض اسودّت من قلّة المطر، حتى عاد لونُها شبيهاً بالرّماد، واشتدّ الجدب بالحجاز، وجاع الناسُ جوعاً شديداً، واستمرَّ ذلك تسعةَ أشهر، ثم تحوّل إلى الخصب والدعة (البداية) لابن كثير. (م)

(٣) المسغبة: المجاعة. (م)

للناسِ علينا حجة، فكان (طلعة باشا حرب) في هذه الحَلَبة أيضاً هو المجلّي، وكان قد بدأ من بضعِ سنين بتأسيسِ (شركة الملاحة البحرية) وأنشأ البواخرَ الجواريَ كالأعلام[1]، البالغة الحدّ الأقصى من أسباب الراحة والانتظام، مثل (زمزم) و(الكوثر) وغيرهما مما قد سبقَ الكلامُ عليه، وحصل بذلك من الفرجِ لحجّاجِ بيتِ اللهِ الحرامِ ما تحدَّثت به الرُّكبان، وشاعَ ذِكرُه في البلدان.

ولكن لم يكن هذا كلُّ ما تسمو إليهِ همّةُ هذا الرجلِ من إصلاحٍ عمرانيٍّ، وتنظيمٍ ماديٍّ في الحجاز، فقصدَ إلى الأرضِ المقدَّسة، ونظرَ في مختلَفِ العللِ التي تجبُ معالجتُها، وعرضَ نتيجةَ مشاهداتِه على الحكومةِ المصريةِ، التي أسرعتْ في إجابتِه إلى تقريرِ اللازمِ من هذه الإصلاحاتِ الحيويّةِ، بالاتفاقِ مع الحكومةِ السعودية، التي بذلت كلَّ ما في وسعها لأجلِ تسهيلِ الاتفاقِ، وتيسيرِ الارتفاق، فكانَ ما ستنفقهُ الحكومةُ المصريةُ والحكومةُ السعوديةُ هذه النوبة على إصلاحاتِ الحجازِ من إنشاءِ طرقٍ وإنارةٍ كهربائيةٍ، وتوزيعِ مياهٍ وتطهيرِها، وغيرِ ذلك نحواً من مئتين وأربعين ألف جنيه.

---

(١) الأعلام: جمع علم وهو الجبل، ومنه قولهم: علم في رأسه نار. (م)

وهكذا تكون الدولةُ المصريةُ قد نهجَت السبيلَ لجميع الحكوماتِ الإسلاميّةِ في العالمِ أن تشاطِرَ في القيامِ على قِدْرِ إمكانِها، بما يستلزمه الحجازُ من الإصلاحاتِ العصرية، التي لا مندوحةَ عنها في قطرٍ يؤمّه المسلمون من المشارقِ والمغاربِ، سالكينَ إليه البرَّ والبحرَ والجوَّ، وهو مرشّحٌ حتماً بواسطة طرق الانتقالِ الحديثةِ لزيادةِ العمرانِ، وتكاثفِ السكان، وليكونَ أنموذجاً للجمال الصوري والمعنوي، ومثالاً لطيب النجعة في الشتاء والصيف، فإنَّ الذي يشتملُ عليه الحجازُ من المصايفِ البديعةِ كالطائفِ والهدَا ووادي مَحْرَم ووادي ليّة، وجبال الشفا العالية ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر، ينذُرُ وجودُ أشباهه في المعمور، كما فصّلنا ذلك في رحلتِنا الحجازية الموسومة (بالارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف)[1] لا يعوزُ هذه الأمكنة الممتازة بطيب هوائِها وجودَةِ مناخِها وجمالِ إقليمها سوى الطرقِ المعبَّدةِ للسيارات، حتى تقرب المسافات.

وقد نشرَت (شركة بنك مصر) عن الإصلاحات اللازمة للحجاز تقاريرَ وافيةً قيّمةً من أقلامِ المهندسين البارعين، الذين أنفذتهم شركةُ البنكِ إلى الأراضي المقدّسةِ مثل (محمد الجمال

---

(١) الارتسامات، ص(٣٤٩ ـ ٣٥٩) من الطبعة التي قمت بتحقيقها، وهي تحت الطبع. (م)

بك) نائب المدير العام لمعامل الغزل والنسيج المصرية، الذي تكلّم عن حالةِ الحجازِ العمومية، وقابليةِ أرضِها، وما يلزمُ لهذه البلادِ من الأسبابِ الفنيّة، والمدارس الصناعية، وألمّ بمشروعِ المياهِ، الذي يلزمُ له بناء خزّانٍ في مكانٍ مرتفَعٍ تعلو عنه عينٌ زبيدة، بحيث يسدُّ كلَّ عَوَزٍ في مكّة من جهةِ المياهِ، وبمشروعِ إضاءة مكةَ بالكهرباء، وبمشروعِ إنشاءِ طريقٍ صالحةٍ للسياراتِ من جدّة إلى البلدِ الحرامِ، أو سكة حديدية توصِلُ بينهما، ومشروعاتٍ أُخرى تضمّنها هذا التقريرُ الواضحُ المفيدُ، الذي ليسَ فيه محلّ نظرٍ سوى تخمينِه عدد مسلمي المعمور بمئتين وخمسينَ مليوناً، فهذا خطأٌ فاحشٌ، ناشئ عن متابعةِ إحصاءات قديمة أوروبية غير نزيهة، أو ثمّةَ خطأ مطبعي تصحيحه (٣٥٠) مليوناً، وهذا أيضاً دونَ الواقع، كما أوضحنا ذلك بالإحصاءات الرسمية، والبراهين الساطعة في مجلّتنا الأمة العربية (La nation arabe) رداً على الزاعمين أنَّ عدد المسلمين (٢٦٠) مليوناً، مع أنَّ مسلمي آسية وحدَها ينيفونَ على (٢٦٠) مليوناً، وقد بقي غيرَ داخلٍ في هذا الإحصاء مسلمو إفريقية، الذين يناهزون مئة مليون، ومسلمو أوروبة الذين هم من خمسةٍ إلى ستةِ ملايين.

ولقد اهتممنا بهذا الموضوع عمداً لِمَا نُحِسُّه من تحرّجِ صدور الأوروبيين بكثرة عدد المسلمين، واجتهاد الدول الاستعمارية بخاصّة أن ينقِصُوا من عددِهم، ويُخْسِروا من

وزْنِهم، فمحَّصْنا هذا البحثَ عِدَّةَ مرّاتٍ لما نشعر من نيّتهم هذه.

* * *

ثم نعودُ إلى قضيةِ إصلاحاتِ الحجازِ فنقول: إنَّ من جملةِ التقاريرِ الوافيةِ في هذا الموضوعِ تقريراً محرّراً بقلمِ المهندسِ المحقّق (السيد حسن البهتيمي) الّذي يتكلّم على تحويلِ مجرى السيل عن مكّة، وعلى تحسينِ طريقِ المسعى بين الصفا والمروة، وتحسينِ طريقةِ ورودِ المياهِ بعرفاتٍ من عين زُبيدة، وإنارةِ البلد الأمين بالكهرباءِ، وتقريراً آخرَ في هذه المسائل نفسها من قلم السيد (مصطفى ماهر) رئيس مهندسي مياه الجيزة والجزيرة بمصر، ذهب فيه إلى أنَّه بعدَ أن يتمَّ إصلاحُ توزيع (عين زبيدة) و(عين حُنين) التي يتفرَّعُ منها المجرى المسمّى بعين الزعفران، يجبُ أن يباشَرَ الحفرُ في سائرِ الآبارِ والأوديةِ، التي هي مظانّ مياه غزيرة، تفيضُ عن حاجةِ مكّةَ من جهةِ شربِ الشَّفةِ، وتكفي للزراعةِ وللبساتين، قال: «ومشروعُ المياهِ سيكونُ مفتاحاً للبحثِ عن هذه الكنوزِ الأرضية».

وتكلّم المهندسُ المشارُ إليه عن (بئر زمزم) وقال: إنَّ في مائِها أملاحاً نافعةً كأملاحِ المياهِ التي يُستشفى بها في أوروبة، فهي من هذه الوجهةِ صالحةٌ لتوضَعَ في زجاجاتٍ معقّمةٍ مقفَلَةٍ، وتُحمَلُ إلى الخارجِ وتباعُ، فيكونُ منها ربحٌ جزيل.

ثم أشارَ بالوسائلِ اللازمةِ لصيانتِها من الجراثيم الضارّة،

وأن يتولّى عالِمٌ بكتريولوجي دوامَ تحليلِها، ليكونَ تعقيمُها تاماً.

وتكلَّمَ عن عمليةِ مياه (عين زبيدة) وبناء الخزّانات اللازمة بتفاصيل ليس هنا مكانُها.

وأصحبَ التقريرَ بالرسومِ التي توضِّحُ كلَّ شيءٍ، وأشارَ إلى إنارةِ مكّةَ بالقوّةِ الكهربائيةِ، وما فيها من أرباح وفوائد، وذلك كما قرّره المهندسون الآخرون، ولكلٌّ وجهةٌ هو مولّيها.

* * *

وفي تقريرِ المهندس الكبيرِ السيد (مصطفى ماهر) كلامٌ خاصٌّ بالمدينةِ المنوّرةِ، التي هي جنّةٌ من جِنانِ الأرض، وفيه وصفُ مياهِها العذبة الغزيرة، وحدائقها الغنّاء، وقد ختم تقريرَه الشائقَ بقوله: «وإنّي أسألُ اللهَ أن يوفِّقَ عبادَه المؤمنينَ إلى مدّ يدِ المعونةِ إلى الأراضي المقدّسة قِبلةِ المسلمين، كلٌّ فيما يقدِرُ عليه، للتيسير على أهلِها، والاحتفاظِ لهذه البقاعِ الطاهرةِ بما يليقُ بها من الجلالِ والوقار». اهـ.

وتنتهي مجموعةُ هذه المباحثِ التي أعظمُ اليدِ في إجرائِها لطلعة باشا حرب بالتقارير الصحية الجليلة الوافية من قلم العلماء المتخصصين السادة: (محمد حسن العبد) و(مصطفى ماهر) و(حسن حسني راشد) الكيميائي بوزارة الصحة المصرية و(حسن البهتيمي) وكيل القلم الفني ببنكِ مصر.

وفي هذه التقارير التحليلات المفصّلة الدقيقة لمياه (بئر زمزم) ومياه (عين زبيدة) ومياه (عين الزعفران) في مكة و(عين الزرقاء) في المدينة المنورة، مع التواصي الفنية اللازمة للاستفادةِ منها.

ولما كانت هذه المجموعةُ قد نُشِرَت ووزّعت اكتفينا منها بلمحةٍ دالّةٍ في هذه الرسالة، سائلينَ اللهَ أنْ يوفِّقَ كلاً من الدولتين العزيزتين المصرية والسعودية إلى إتمامِ هذه الإصلاحاتِ الجليلةِ بحذافيرِها، فإنَّ الإصلاحَ واجبٌ في كلِّ مكانٍ فكيف البقاع المقدَّسة[1]؟!.

* * *

(١) قد تحقق من هذه الإصلاحات بفضلِ اللهِ أولاً ثم بجهودِ حكومةِ المملكة السعودية ما يفوق خيال أولئك الخبراء والعلماء فجزى اللهُ العاملين خيراً. (م)

خُلَاصَةُ ٱلجَوَابِ :

انّ المسلمين ينهضون مثل ما نهض غيرهم

إنَّ الواجبَ على المسلمين ـ لينهضوا ويتقدَّموا ويعرجوا في مصاعدِ المجدِ، ويترقّوا كما ترقَّى غيرُهم من الأممِ ـ هو الجهادُ بالمالِ والنفسِ، الذي أمرَ بهِ اللهُ في قرآنِه مراراً عديدةً، وهو ما يسمّونه اليوم (التضحية).

فلن يتمَّ للمسلمينَ، ولا لأمّةٍ من الأممِ نجاحٌ ولا رقيٌّ إلا بالتضحيةِ، وربما كان الشيخ (محمد بسيوني عمران) أو غيرُه من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظنَّ أنّي سأجيبُه أنّ مفتاحَ الرقيِّ هو قراءةُ نظريات (آينشتين) في النسبية مثلاً، أو درس أشعة (رونتجن)، أو ميكروبات (باستور)، أو التعويل في اللاسلكي على التموُّجات الصغيرة أكثر من الكبيرة، أو درس اختراعات (أديسون) وأنَّ سببَ حادثةِ المنطادِ الإنكليزي الذي سقطَ أخيراً واحترقَ هو كونُه لم يُنفَخ بالهليوم، وإنما بالهيدروجين، والحال أن الهيدروجين ـ وإن كان أخفَّ في الوزن ـ قابلٌ للاشتعال، وأنَّه لا خوفَ من اشتعالِ الهليوم، وإن كان أثقلَ شيئاً من الهيدروجين ـ وما أشبه ذلك.

والحقيقةُ أنَّ هذه الأمورَ إنَّما هي فروعٌ لا أصول، وأنَّها نتائجُ لا مقدّمات، وأنّ التضحيةَ، أو الجهادَ بالمالِ والنفسِ هو العِلْمُ الأعلى، الذي يهتِفُ بالعلومِ كلِّها.

فإذا تعلَّمت الأمةُ هـذا العلمَ، وعملَتْ بهِ، دانتْ لها سـائرُ العلومِ والمعارف، ودنَتْ مِنها جميعُ القطوفِ والمجاني.

وليسَ بضروريٍّ أن يكونَ صاحِبُ الحاجةِ عالِماً بعملِها حتى يكونَ عالِماً بالاحتياجِ إليها.

قال لي مرّةً حكيمُ الشرقِ السيد جمال الدين الأفغاني[1]: «إنَّ الوالدَ الشفيقَ يكونُ من أجهلِ الجهلاءِ، فإذا مَرِضَ ابنُه اختارَ له أحذقَ الأطباء، وعلم أنَّ هناك شيئاً نافعاً هو العلم، لا يعلم هو شيئاً منه، ولكنَّه يعلم بسائقِ حِرْصِه على حياةِ ابنهِ أنَّه ضروري».

ولم يكنْ (محمد علي)[2] عالِماً، وربّما كان أمّياً، ولكنَّه

---

(١) محمد بن صفدر الحسيني، المعروف بجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٥هـ = ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرجال الأفذاذ، ولد في أسد آباد في إيران، وتوفي في إستانبول. (م)

(٢) محمـد علـي بـاشـا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) مؤسس مصر الحديثة وباني نهضتها العمرانيـة وجد الأسـرة المالكة بمصر حتى الثورة عام ١٩٥٢م. انظر كتاب (بناء دولة=

بعثَ مِصْرَ من العدمِ إلى الوجودِ في زمنٍ قصيرٍ، وصيّرها في زمانِه من الدولِ العِظامِ، بسائقِ هذا العلمِ الأعلى، الذي هو العقلُ السليم والإرادة، وهو الذي يبعثُ صاحبَه إلى التفتيشِ عن العلومِ، وحملِ الأمّةِ عليها.

والمسلمونَ يمكنُهم إذا أرادوا بعثَ العزائمِ، وعملوا بما حرَّضَهم عليه كتابُهم؛ أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسلامِهم، كما بقي أولئك على أديانِهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فإنَّ أولئكَ رجالٌ ونحنُ رجالٌ، وإنَّما الذي يُعْوِزُنا الأعمال، وإنَّما الذي يضرُّنا هو التشاؤُمُ والاستخذاءُ وانقطاعُ الآمال.

فلننفض غبارَ اليأسِ، ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلمْ أنّنا بالغون كلَّ أمنيةٍ بالعملِ والدأبِ والإقدامِ، وتحقيقِ شروطِ الإيمان التي في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

«تم الجواب»

لوزان (١١) نوفمبر سنة (١٩٣٠م) شكيب أرسلان

= مصر: محمد علي) تأليف الدكتور فؤاد شكري، وعبد المقصود العناني، وسيد محمد خليل. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، ١٩٤٨م. (م)

كلمات مأثورة للأمير شكيب أرسلان

مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ هَذَا الكِتَابِ

١ ـ القرآن الكريم قد أنشأ العرب نشأةً مستأنفةً، وخلقهم خلقاً جديداً، وأخرجهم من جزيرتهم، والسيفُ في إحدى اليدين، والكتاب في الأخرى، يفتحون ويسودون، ويتمكّنون في الأرض، بطولها والعرض. ص(٢٢).

٢ ـ الحقيقة أنَّ العربَ لم يستقلُّوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلاّ بالإسلام، ولم تعرفهم الأمم البعيدة، وتخنع لهم الممالك العظام، والقياصرة والأكاسرة، ويتحدَّث بصولتهم الناسُ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعدَ الذي أحلَّهم في الصفّ الأول من الأمم الفاتحة إلاّ بمحمّد ﷺ. ص(٢٣).

٣ ـ لو أيَّد اللهُ مخلوقاً بدون عمل لأيَّد من دون عمل محمداً رسولَه ﷺ، ولم يخرجه إلى القتال والنزال والنضال، واتّباع سُننِ الكونِ الطبيعية للوصول إلى الغاية. ص(٢٥).

٤ ـ الأمم الإسلامية إذا ائتمرت في المفاداة بما أمرها به كتابُها، كما كان يفعل آباؤها، أو اقتدت على الأقل بما هو دأبُ الأوروبيين اليوم؛ من بذلِ النفوسِ والنفائسِ في سبيلِ حفظ

بيضتها، وذودِ المعتدين عنها، لم تقطفْ من ثمراتِ التضحية إلا مثلَ ما قطفه غيرُها، وانقلبت بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ، لم يمسسها سوءٌ. ص(٢٨).

٥ ـ إنَّ اللهَ غيرُ محتاجٍ إلى نُصرةِ أحدٍ، وإنَّما يريدُ بنصرتِه تعالى إطاعة أوامره، واجتناب نواهيه. ص(٢٩).

٦ ـ ظنَّ كثيرٌ من المسلمين أنَّهم مسلمون بمجرَّد الصلاة والصيام، وكل ما لا يكلّفهم بذلَ دمٍ ولا مال، وانتظروا على ذلك النصرَ من الله. ص(٣٠).

٧ ـ إنَّ عزائم الإسلام لا تنحصرُ في الصلاة والصيام، ولا في الدعاء والاستغفار، وكيف يقبلُ اللهُ الدُّعاءَ ممن قعدوا وتخلَّفوا؟ وقد كان في وُسْعِهم أن ينهضوا ويبذلوا. ص(٣٠).

٨ ـ إنَّ العملَ لأجلِ السلطان في الأرض أشبهُ بالحرثِ في الأرضِ، فبقدر ما تشتغلُ فيها هي تعطيك، وإن قصَّرتَ في العملِ قصَّرتْ هي في الثَّمرِ. ص(٣١).

٩ ـ من استصغرَ الدُّنيا كبرتْ لديه، ومن هانتْ عليه الحياةُ جاءتهُ الحياةُ على رجليها، سنَّةَ اللهِ في خلقِه، ولن تجدَ لسنَّةِ اللهِ تبديلاً. ص(٣٣).

١٠ ـ من العبثِ أن تظنَّ دولُ الاستعمارِ إخماد الحركاتِ الوطنيةِ بالعسفِ والقهرِ، والقتلِ والنفي والحبسِ، فكلُّ هذا لا

يزيدُ المسلمين إلاّ عداءً. ص(٤٠).

١١ ـ الموتُ موتانِ: أحدُهما الموتُ لأجلِ الحياةِ، وهو الموتُ الذي حَثَّ عليه القرآنُ الكريم المؤمنين، إذا مدَّ العدوُّ يده إليهم، والموتُ الثاني هو الموت لأجلِ استمرارِ الموتِ، وهو الذي يموتـه المسـلمون في خدمـة الدولِ التي استولَتْ على بلادِهم. ص(٤٧).

١٢ ـ من أعظم أسباب تأخُّر المسلمين الجهلُ، الذي يجعلُ فيهم من لا يميّزُ بين الخمر والخلّ، فيتقبَّل السفسطةَ قضيةً مسلَّمةً، ولا يعرفُ أن يردَّ عليها. ص(٦٧).

١٣ ـ من أعظم أسباب تأخُّر المسلمين العلمُ الناقصُ الذي هو أشدُّ خطراً من الجهل البسيط، لأنَّ الجاهلَ إذا قيَّضَ اللهُ له مرشـداً عالماً أطاعه، ولم يتفلسـف عليه، أمَّـا صاحبُ العلمِ الناقص فهو لا يدري، ولا يقتنعُ بأنَّه لا يدري. ص(٦٧).

١٤ ـ الأخلاقُ في تكوينِ الأمم فوقَ المعارف. ص(٦٨).

١٥ ـ من أكبرِ عـواملِ تقهقـرِ المسـلمين فسـادُ أخلاقِ أمرائهم. ص(٦٨).

١٦ ـ عَهِدَ الإسلامُ إلى العلماء بتقويمِ أَوَدِ الأمراء، وكانوا قديماً في الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابيّة في هذا العصر، يسـيطرون على الأُمَّـةِ، ويسـدّدون خطواتِ المِلَـكِ،

ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، ويَهيْبُون بالخليفة فَمَنْ بعدَه إلى الصواب، وهكذا كانت تستقيمُ الأمورُ، لأنَّ أكثرَ أولئك العلماء كانوا متحقّقين بالزهد، متحلّين بالورع، متخلّين عن حظوظ الدنيا، لا يهمّهم أَغَضِبَ المَلِكُ الظالمُ الجبَّارُ أم رضي؟ فكان الخلائف والملوك يهابونهم، ويخشَونَ مخالفتهم، لما يعلمون من انقياد العامة لهم، واعتقادِ الأمةِ إمامتهم. ص(٦٩).

١٧ ـ إنَّ لكلّ عصر علماً وصناعةً ومدنيةً تشاكِلُه، وأمورُ الخلقِ كلُّها نسبية. ص(٧٢).

١٨ ـ المادةُ لا تقدِرُ أن تعمل شيئاً من نفسِها، وإنَّما الذي يعملُ هو الروحُ. ص(٧٣).

١٩ ـ إنَّ العلم الحديث يتوقَّفُ على الفكرة والعزيمة، ومتى وُجِدَتْ هاتان وُجِدَ العلمُ الحديثُ، ووجدت الصناعةُ. ص(٧٣).

٢٠ ـ إنَّ مِلاكَ الأمرِ هو الإرادةُ، فمتى وُجِدَت الإرادةُ وُجِدَ الشيءُ المراد. ص(٧٤).

٢١ ـ لا يجوزُ أن يتطرَّقَ اليأسُ إلى قلبِ أحدٍ لا عقلاً ولا شرعاً، ولا سيّما المسلم، الذي يخبِرُه دينُه بأنَّ اليأسَ هو الكفرُ بعينِه. ص(٧٥).

٢٢ ـ ضَنُّ المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي

شلَّ حركتهم السياسية، وفتَّ في عَضُدِ قوميتهم، إلى أنْ صارت الأممُ الغالبةُ على أمرِهم لا تحسِبُ لهم أدنى حساب. ص(٧٦).

٢٣ ـ من سنن الله في أرضه أنَّ الذُّلَّ يَرْدُفُه الفقرُ، وأنَّ العزَّ يردفُه الثراءُ. ص(٧٨).

٢٤ ـ الكثرةُ بنفسِها لا تفيدُ إن لم تقترن بجَوْدَةِ النَّوعِ، والكميةُ لا تغني عن الكيفية. ص(٨٢).

٢٥ ـ علَّةُ العلل في ضعف المسلمين اليومَ هو الجبنُ والبخلُ. ص(٧٢).

٢٦ ـ من سنن الله في خلقه أنَّ الإفراط في حُبِّ الدنيا يَحْرِمُ الإنسانَ من التمتّع بها، وأنَّ الغلوَّ في المحافظةِ على الحياةِ تكونُ عاقبتُه زيادةَ التعرُّضِ للهلاكِ. ص(٨٥).

٢٧ ـ القرآنُ الكريمُ يأمرُ المسلمَ بأنْ يحتقرَ الحياةَ والمالَ وكلَّ عزيزٍ في سبيلِ اللهِ، ويأمرُ المسلمَ أن يَثْبُتَ ولا ييأسَ، وأن يصبرَ ولا يتزلزلَ، مهما أصيبَ. ص(٨٥).

٢٨ ـ إنَّ المسلمين كلَّما آثروا السلامةَ ازدادوا موتاً، وكلَّما احتقروا الحياةَ ازدادوا حياةً. ص(٨٥).

٢٩ ـ إنَّ عدمَ الإنفاقِ في سبيل الله هو التَّهْلكةُ بعينها، وقد أصابت المسلمينَ تهلكةُ عَدمِ الإنفاقِ، وصدق فيهم ما حذَّرَهم اللهُ مِنْهُ. ص(٨٥).

٣٠ ـ من أكبر عـوامل انحطاط المسـلمين الجمودُ على القديم. ص(٨٦).

٣١ ـ المسـلمُ الجامدُ هـو الذي مهَّـدَ لأعـداء المدنيـة الإسلامية الطريقَ لمحاربةِ هذه المدنية، محتجّين بأنَّ التأخّر الذي عليه العالم الإسلامي إنَّما هو ثمرةُ تعاليمه. ص(١٠٣).

٣٢ ـ المسلمُ الجامدُ هو سببُ الفقرِ الذي ابتُلِيَ به المسلمون، لأنَّه جعلَ الإسلامَ دينَ آخرةٍ فقط. ص(١٠٣).

٣٣ ـ إنَّ الإسلامَ هو دينُ دنيا وآخرة، وإنَّ هذه مزيةٌ له على سائرِ الأديان، فلا حَصَرَ كَسْبَ الإنسانِ فيما يعودُ للحياةِ التي وراءَ هذه، كما هي دياناتُ الهندِ والصين، ولا زهَّدَهُ في مالِ الدُّنيا وملكِها ومَجْدِها، كتعاليمِ الإنجيلِ، ولا حصرَ سَعْيَهُ في أمورِ هذه المعيشة الدنيوية كما هي مدنيّةُ أوروبة الحاضرة. ص(١٠٣).

٣٤ ـ الجامدُ الذي شهرَ الحربَ على العلوم الطبيعية والرياضية وفنونها وصناعاتِها بحجةِ أنَّها من علوم الكفار حرمَ الإسلامَ ثمراتِ هذه العلوم، وأورثَ أبناءَه الفقرَ الذي هم فيه. ص(١٠٣).

٣٥ ـ إنَّ العلومَ الطبيعية هي العلومُ الباحثةُ في الأرض، والأرضُ لا تخرِجُ أفلاذَها إلاّ لمن يبحثُ فيها. ص(١٠٣).

٣٦ ـ من ليست له دنيا ليس له دينٌ. ص(١٠٤).

٣٧ ـ إذا كان التسليمُ للهِ مقروناً بالعملِ، فإنَّه أنفعُ في الدّنيا والأخرى، لأنّ إفراطَ المرءِ في الاعتمادِ على نفسِه يورِّطه في البطر إذا نجحَ، وفي الجزعِ إذا فَشِلَ، والذي يريدُه الإسلام إنَّما هو أن يعقِلَ الإنسانُ ويتوكّلَ، وأن يدبِّرَ لنفسه بهدايةِ عقلِه، الذي جعلَه اللهُ مرشداً، ويعلمَ مع ذلك أنْ ليسَ كلُّ الأمرِ بيده، وأنَّ من الأقدارِ ما لا تدركُه الأفكارُ. ص(١٠٨).

٣٨ ـ حقيقةُ الأمرِ أنَّ كلَّ ما هو واردٌ في القرآن الكريم من آيات القضاء والقدر إنّما كان مقصوداً به سبقُ علمِ اللهِ بكلِّ ما يقع، ولم يكن مقصوداً به نفيُ الاختيارِ، والتزهيدُ في الكسب. ص(١١٠).

٣٩ ـ المسلمون الجامدون فتنةٌ لأعداء الإسلام وحجةٌ عليه. ص(١١١).

٤٠ ـ إنَّ الإسلامَ هو من أصله ثورةٌ على القديمِ الفاسد، وجَبٌّ للماضي القبيح، وقطعُ كلِّ العلائقِ مع غيرِ الحقائقِ، فكيف يكونُ علّةَ الجمود؟!. ص(١١١).

٤١ ـ إنَّ الذين يفهمون الإسلام حقّ الفهم يرحّبون بكلِّ جديدٍ لا يعارِضُ العقيدةَ، ولا تُخشى منه مفسدةٌ. ص(١١٢).

٤٢ ـ لا أظنُّ شيئاً يفيدُ المجتمعَ الإسلاميَّ يكونُ مخالفاً للدين المبنيّ على إسعادِ العبادِ. ص(١١٢).

٤٣ ـ تأخُّر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة، بل من الجهلِ بالشريعة، أو كان من عدمِ إجراءِ أحكامِها كما ينبغي. ص(١١٦).

٤٤ ـ لمّا كانتِ الشريعةُ جاريةً على حقّها، كان الإسلامُ عظيماً عزيزاً، وأيُّ عظمةٍ مما كان للإسلام في أيّامِ عمر بن الخطاب. ص(١١٦).

٤٥ ـ المدنيةُ الإسلاميةُ هي من المدنيّاتِ الشهيرةِ التي يزدانُ بها التاريخُ العام، والتي تغصُّ سجلاّتُه الخالدةُ بمآثرِها الباهرة. ص(١١٦).

٤٦ ـ بلغت بغداد في دَوْرِ المنصور والرشيد والمأمون من احتفالِ العمارة، واستبحارِ الحضارة، وتناهي الترفِ والثروةِ ما لم تبلغه مدينةٌ قبلها ولا بعدَها إلى هذا العصر، حتى كان أهلُها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان. ص(١١٧).

٤٧ ـ كانت دمشقُ والقاهرةُ وحلب وسمرقند وإصفهان وحواضر أخرى كثيرةٌ من بلادِ الشامِ أمثلةً تامةً، وأقيسةً بعيدةً في استبحارِ العمران، وتطاول البنيان، ورفاهةِ السكان، وانتشارِ العلم والعرفان، وتأثُّلِ الفنونِ المتهدّلةِ الأفنان. ص(١١٧).

٤٨ ـ كانت القيروان، وفاس، وتلمسان، ومرّاكش في المغرب أعظمَ من أن يطاولها مطاولٌ، أو يناظرُها مناظِرٌ، أو أن يكاثِرُها مكاثِرٌ في ممالك أوروبة حتى هذه القرون الأخيرة. ص(١١٨).

٤٩ ـ كانت قرطبة مدينةً فذَّةً في أوروبة، لا يدانيها مدانٍ، وكان عددُ سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان فيها نحو سبعمئة جامع، عدا المسجد الأعظم. ص(١١٨).

٥٠ ـ حسبُك أنَّ غرناطة ـ التي كانت حاضرةَ مملكةٍ صغيرةٍ، في آخرِ أمر المسلمين بالأندلس ـ لم تكن في أوروبة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدةٌ تضاهيها ولا تدانيها، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الإسبانيول نصفُ مليون نسمة، ولم تكن وقتئذٍ عاصمةٌ من عواصم أوروبة تحتوي نصف هذا العدد. ص(١١٨).

٥١ ـ لم نعلم مدنيةً واحدةً من مدنيات الأرض إلا وهي رشحُ مدنياتٍ سابقةٍ، وآثارُ آراءٍ اشتركت بها سلائلُ البشرية، ومجموعُ نتائج عقولٍ مختلفةِ الأصول، ومحصولُ ثمراتِ ألبابٍ متباينةِ الأجناسِ. ص(١٢٠).

٥٢ ـ أينسى حسَّادُ الإسلام، والمكابرون في عظمةِ فضلِه، الزاعمون أنَّه إنما نقل وتعلَّم، وقلَّد واقتدى، وأنَّه إنما صلّى وراء

غيره: أنَّ الغربَ كان غلبَ على الشرق، وأنَّ المدنيَّةَ الشرقيةَ يومَ ظهرَ الإسلامُ كان [قد] «أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد»، وأنَّه هو الذي جدَّدها، وأحيا آثارَها، وأقالَ عِثارَها، وأنها بعدَ أن كانتْ قد انمحت، ولحقت بالغابرين، أبرزَها من أصدافها، وجلاها من بعدِ أن كانت ملفوفةً بغلافها، ونشرها في الخافقين، وبَلَجَها كفلقِ الصُّبحِ لذي عينين، وأضفى عليها لباسَ الإسلامِ الخاصّ، ودبَّجها بديباجةِ القرآن، التي لم تفارقها في شرقٍ ولا غرب، ولا سهلٍ ولا وعرٍ، حتى حملَ ذلك كثيراً من علماءِ الإفرنج على أن اعترفوا بأنَّ مدنيةَ الإسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً، وإنَّما هي قد نبعت من القرآن، وتفجَّرت من عقيدة التوحيد. ص(١٢١).

٥٣ ـ إنَّ ما ترجمته حضارةُ الإسلام من كتب، وما أخذته عن غيرها من علومٍ، وما أفادته في فتوحاتها من مَنازعَ جميلةٍ، وطرائقَ سديدةٍ، أخذتها عن غيرها: لا يقدح في بكارتها الإسلامية، ومسحتها العربية، لأنَّ هذا شأنُ الحضارات البشرية بأجمعها، أن يأخذَ بعضُها عن بعضٍ، ويكملُ بعضها بعضاً. ص(١٢١).

ـ لا يقدر مكابرٌ أن يكابِرَ أنَّ الإسلام كان له دورٌ عظيمٌ في الدُّنيا، سواءٌ في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية، وأنَّ هذه الفتوحات قد اتسقت له في دورٍ لا يزيدُ على ثمانينَ سنة، مما أجمع الناسُ على أنَّه لم يتَّسق لأمةٍ قبلَه أصلاً. ص(١٢٢).

٥٤ ـ المصائبُ التي حلَّت بالمسلمين هي مما صنعته أيديهم، ومما حادوا به عن النهج السوي، الذي أوضحه لهم القرآنُ، الذي لما كانوا عاملينَ بحكم آيه علوا وظهروا، وكانت لهم الدول والطوائل، فلمَّا ضعفَ عملُهم به، وصاروا يقرؤونه بدون عمل، وانقادوا إلى أهواءِ أنفسِهم من دونه، ذهبت ريحُهم، وولَّى السلطان الأكبر، الذي كان لهم، وانتقصت الأعداءُ أطرافَ بلادهم، ثم قصدوا إلى أوساطها. ص(١٢٣).

٥٥ ـ إنَّ الإسلامَ ـ وحدَه لا غيره ـ هو الذي جدَّد مدنيةَ الشرقِ الدارسةَ، واستأنفَ صولتَه الذاهبةَ الطامسةَ، وبعثَ تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبَشَرِ كبغداد، والبصرة، وسمرقند، وبخارى، ودمشق، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة، وهلم جرا، فإنْ كانت قد بقيت للشرق آثار ومدنياتٌ قديمةٌ، فإنَّ الإسلامَ هو الذي وطَّدَ بوانيها، وطرَّز حواشيها، وحملَ السيفَ بيد، والقلمَ بيدٍ، إلى أبعدَ ما تصوّره العقل من حدودِ الأقطارِ، التي لم يسبق لشرقيٍّ أن وطأها بقدمه. ص(١٢٨).

٥٦ ـ إذا كان الإفرنج الصليبيون من الغرب، وكان المغول ـ أولئك الجراد المنتشر ـ من الشرق، قد تبّروا ما علا الإسلامُ في تلك الممالك، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية، واتّباعهم للشهوات، وإمعانهم في الضلالات، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة، وفقدهم

ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة، قد قضت في الداخل على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ـ فليس الذنب في هذا التقلّص ذنب الإسلام، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن، وإنما الذنبُ هو ذنبُ الهمج من الإفرنج، وجنايةُ ذلك الجراد الزاحف من المغول، وإنما هي تبعة المسلمين، الذين رغبوا عن أوامر كتابهم، واشتروا بآياته ثمناً قليلاً، إلا النادر، منهم. ص(١٢٨).

٥٧ ـ إنَّ العربَ في القرون الوسطى كانوا أساتيذَ الأوروبيين، وكان الواحدُ من هؤلاءِ إذا تخرّج على العرب تباهى بذلك بين قومه. ص(١٥٩).

٥٨ ـ إنَّ السببَ في تردّي المسلمين هو أنَّهم اكتفوا في آخر الأمرِ من الإسلامِ بمجرَّدِ الاسم، والحالُ أنَّ الإسلامَ اسمٌ وفعلٌ. ص(١٣٤).

٥٩ ـ العالم الإسلاميُّ يمكنُه النهوضُ والرقيُّ، واللحاقُ بالأمم العزيزة الغالبةِ إذا أراد ذلك المسلمون، ووطَّنوا أنفسَهم عليه، ولا يزيدهم الإسلامُ إلا بصيرةً فيه وعزماً، ولن يجدوا لأنفسِهم على العلمِ والفنِّ خيراً من القرآن الكريم. ص(١٣٥).

٦٠ ـ لا بدَّ لنا من تربيةٍ علميةٍ سائرةٍ جنباً إلى جنب مع تربيةٍ دينيةٍ. ص(١٤٠).

٦١ ـ من أعظمِ أسبابِ انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدُهم كلَّ ثقةٍ بأنفسِهم، وهو من أشدِّ الأمراض الاجتماعية، وأخبثِ الآفات الروحية، ولا يتسلَّطُ هذا الداءُ على إنسانٍ إلا أودى به، ولا على أمةٍ إلا ساقها إلى الفناء. ص(١٤٢).

٦٢ ـ أجمعَ الأطباءُ في الأمراض البدنية أنَّ القوةَ المعنويةَ هي رأسُ الأدوية، وأنَّ من أعظم عوامل الشفاء إرادةُ الشفاء. ص(١٤٢).

٦٣ ـ إنَّ اللهَ قد جعلَ التقوى فوقَ كلِّ المناقبِ والمحامدِ. ص(١٦٠).

٦٤ ـ إنَّ الواجبَ على المسلمين لينهضوا ويتقدَّموا، ويعرجوا في مصاعد المجد، ويترقّوا كما ترقّى غيرهم من الأمم، هو الجهاد بالمالِ والنفسِ، الذي أمرَ به اللهُ في قرآنه مراراً عديدةً، وهو ما يسمّونه اليوم (التضحية). ص(١٧٣).

٦٥ ـ إنَّ التضحيةَ، أو الجهادَ بالمالِ والنفس هو العِلْمُ الأعلى الذي يهتِفُ بالعلوم كلِّها، فإذا تعلمت الأمةُ هذا العلمَ وعملتْ به، دانتْ لها سائرُ العلومِ والمعارفِ، ودنت منها جميعُ القطوف والمجاني. ص(١٧٤).

٦٦ ـ المسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعثَ العزائم، وعملوا بما حرَّضهم عليه كتابُهم أن يبلغوا مبالغَ الأوروبيين والأمريكيين

واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على الإسلام، كما بقي أولئك على أديـانهم، بل هم أولى بذلـك وأحرى، فإنَّ أولئك رجالٌ ونحن رجال، وإنَّما الذي يعوزنا الأعمالُ، وإنَّما الذي يضرُّنا هو التشاؤمُ والاستخذاءُ وانقطاعُ الآمال، فلننفضْ غبارَ اليأسِ، ولنتقدّم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغون كلَّ أمنيةٍ بالعملِ والدأبِ والإقدامِ وتحقيقِ شروطِ الإيمانِ في القرآن. ص(١٧٥).

* * *

الفهـــرس

الموضوع — الصفحة

الإهداء ٤

● ـ مقدمة ٥

● الأمير شكيب أرسلان في سطور ٩

● لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟ ١١

● مقدمة بقلم السيد محمد رشيد رضا ١٣

● الغاية من هذا الكتاب ١٤

● كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران يسأل فيه عن أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط ١٦

● جواب الأمير شكيب أرسلان ١٨

● تشابه الشعوب الإسلامية في الضعف ١٨

● في العالم الإسلامي مخاضاً عظيماً ٢٠

● أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي ترجع كلها إلى الإسلام . ٢١

ـ لولا الخلاف الذي دبَّ بين المسلمين لكانوا أكملوا فتح العالم ٢١

ـ القرآن الكريم قد أنشأ العرب نشأةً مستأنفةً، وخلقهم
خلقاً جديداً ٢٢
ـ العرب لم يستقلّوا إلاّ بالإسلام، ولم تعرفهم الأمم
ويتحدَّث بصولتهم الناس إلا بمحمد ﷺ ٢٣
● فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم ٢٤
ـ لما كان المسلمون قد غيَّروا ما بأنفسهم غيَّر الله ما بهم ٢٤
ـ لا ينصر الله أمة بدون عمل ٢٥
● المقابلة بين حالي المسلمين والإفرنج اليوم ٢٦
ـ فقد المسلمون الحماسة التي كانت عند آبائهم،
وتخلَّق بها اليوم أعداؤهم ٢٦
ـ تضحيات الأوروبيين في الحرب العالمية الأولى في
سبيل عزّتهم ونجاحهم عظيمة ٢٧
ـ ما قدّمه المسلمون من تضحيات في سبيل عزّتهم
واستقلالهم هزيل ٢٧
ـ عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام ولا في
الدعاء والاستغفار ٣٠
● اعتذار المسلمين عن أنفسهم وردُّه ٣٠
ـ محا المسلمون رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية
التي تركها آباؤهم ٣٠

- بلغت تبرعات المسلمين من أجل فلسطين (١٣) ألف جنيه فقط ٣١
- مقارنة بين ما يبذله اليهود وما يبذله العرب ٣٣
- لماذا سادت الأمة الإنكليزية هذه السيادة كلها في العالم؟ ٣٥
- أهمية مقاطعة اليهود ٣٦

● **نتائج إعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبرقة** ٣٧
- النشيد الطلياني مليء بروح العداء للإسلام والمسلمين ٤١
- تألُّب أوروبة مع الإسبان، ومساعدة الأمريكان لهم ضد المسلمين في منطقة الريف المغربي، وخذلان المسلمين لإخوانهم في الدين ٤٢

● **خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم بخدمة الأجانب واعتذارهم الباطل** ٤٤
- لولا تبرّع بعض المسلمين بالخيانة ومظاهرة الأجنبي على أبناء الملّة لما استأسد الأجنبي ٤٦
- الموت موتان: موت لأجل الحياة، وموت لأجل استمرار الموت ٤٦
- نماذج من خيانات بعض المسلمين في المغرب وسورية ٤٨
- الظلم يخص والبلاء يعم ٥٢
- أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون أنفسهم ٥٥

● كلمة الملك (ابن سعود) في تخاذل المسلمين وتعاديهم ٥٥
ـ ما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان
بجيشٍ نصفه أو قسم منه من المسلمين ٥٦
ـ القرآن الكريم ملآن بالتحريض على الجهاد والإيثار
على النفس والصدق والصبر ونجدة المؤمن لأخيه . . . ٥٩
● الموازنة بين المسلمين والنصارى في البذل لنشر الدين ٦٠
ـ مسألة تنصير البربر ٦٠
ـ من أغرب الأمور أن نرى الأوروبيين ودعاتهم
وتلاميذهم من الشرقيين يتّهمون المسلمين بالتعصّب
الديني ٦٢
ـ رغبة المنبوذين من الهنود في الإسلام ومآل ذلك ٦٢
ـ المسلمون الجغرافيون الذين لا يقيمون للدين وزناً . . . ٦٣
ـ لا يخلص المسلم من لقب (متعصب) إلا إذا صار
عبداً ذليلاً للأوروبيين ٦٤
ـ للأوروبي أن يبذل الأموال الطائلة في الدعاية
للنصرانية بين المسلمين، وأن يحميها بالمدافع
والطائرات، وله أن يحول بين المسلمين ودينهم
بالذات أو بالواسطة، وله أن يدس كل دسيسة في
بلاد الإسلام ويبقى مع ذلك راقٍ ومتمدّن وعصري . . . ٦٤

- أوروبة لم تتخلَّ عن دينها كما يزعم المسلمون
الجغرافيون ٦٥
- الإسلام والنصرانية في الكونغو ٦٦
● **أهم أسباب تأخّر المسلمين** ٦٧
● **الجهل والعلم الناقص** ٦٧
● **فساد الأخلاق ولا سيما فساد الأمراء والعلماء** ٦٧
- الأمراء الفاسدون والعلماء المتزلفون ركنا الفساد ٦٨
- دور العلماء في تقويم أود الأمراء ٦٨
- العلماء المتزلفون سوّغوا للأمراء الفاسقين أشنع
موبقاتهم وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين،
هذا والعامّة مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء وعلوّ
مناصبهم ٦٩
● **الجبن والهلع** ٦٩
● **اليأس والقنوط** ٧٠
● **نسيان المسلمين ماضيهم المجيد** ٧١
- خمسمئة مسلم ينشئون إمارة في قلب أوروبة ٧١
● **شبهات الجهلاء الجبناء وردّها** ٧٢
- ليست الدبابات والطيارات هي التي تبعث العزائم وتوقد

نيران الحمية في صدور البشر، بل الحمية والعزيمة
والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات ٧٣
ـ إن ملاك الأمر هو الإرادة، فمتى وجدت الإرادة
وجد الشيء المراد ٧٤
ـ لا يجوز أن يتطرّق اليأس إلى قلب أحدٍ لا عقلاً
ولا شرعاً ولا سيما المسلم الذي يخبره دينُه أن
اليأس هو الكفر بعينه ٧٥
ـ الاستسلام لا يزيد المسلمين إلا ويلاً ولا يزيد
عدوّهم إلا استبداداً وجبروتاً ٧٦
ـ استولت فرنسة على أموال وأملاك المسلمين في
المغرب العربي وأنفقتها في القضاء على دينهم ولغتهم. ٧٦
ـ عندما بخل المسلمون بالمال، ولم يجاهدوا بأموالهم
أصابهم الذل والخنوع والفقر والجوع، فالذل يردفه
الفقر، والعز يردفه الثراء ٧٨
ـ ما ذهب شيء من ملك المسلمين إلى أيدي الأجانب
إلا بخذلان بعضهم لبعض ٨١
ـ علة العلل في ضعف المسلمين اليوم هو الجبن
والبخل (من حبكم الدنيا، وكراهيتكم الموت) ٨٢
ـ ما بلغه المسلمون من الذل والهوان عند سقوط بغداد
في أيدي التتر ٨٢

ـ خلاصة القول : إن المسلمين كلما آثروا السلامة
ازدادوا موتاً ، وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياةً ٨٤

● **ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين وعمل كلٍّ منهما . . . ٨٥**

ـ الجاحد هو الذي يريد أن يفرنج المسلمين ، ويخرجهم
عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ٨٦

ـ إنكار الإنسان لماضيه مخالف لسنن الطبيعة ٨٦

● **محافظة الشعوب الأوروبية على قوميتها ٨٧**

● **العبرة للعرب وسائر المسلمين برقيّ اليابانيين ٩١**

ـ الياباني العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات
الحياة مع حفظ الميل الدائم إلى الرجوع إلى ماضيه ،
ومع تمسّكه الشديد بقوميّته ٩٢

● **لماذا لا نسمّي اليابان وأوروبة رجعية بتديّنها ٩٥**

ـ قضية تحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح
وانشغال بريطانية ومجالسها بها دليل على
استمساك الإنكليز بمبادئهم الدينية ٩٥

ـ اليهود يحرصون على حذافير دينهم ، ويجاهدون
في إحياء لغتهم العبرية ، وينبشون الأرض عن بقايا
تاريخهم ، ومع ذلك لا يُقال عنهم إنهم رجعيون أو
متأخّرون ١٠٠

ـ جميع الخلائق تعلّموا وتقدّموا وترقّوا، والمسيحي
منهم باق على إنجيله وتقاليده الكنسية، واليهوديُّ
باقٍ على توراته وتلموده، والياباني باقٍ على وثنه
وأرُزّه المقدّس ١٠٢

● غوائل الجامدين في الإسلام والمسلمين ١٠٢

ـ الجامد هو الذي مهَّد لأعداء الأمة ١٠٢

ـ الجامد هو سبب الفقر الذي ابتُلي به المسلمون لأنه
جعل الإسلام دينَ الآخرة فقط، والحال أن الإسلام
هو دين دنيا وآخرة ١٠٣

ـ الجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية
والرياضية بحجة أنها علوم الكفار، فحرم الإسلام
ثمرات هذه العلوم ١٠٣

ـ المسلم الجامد يسعى من حيث لا يدري إلى بوار
أمته وانحطاطها ١٠٤

● آيات العمل في القرآن المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل .. ١٠٥

ـ ما بال الإفرنج يتجاهلون ما في الإنجيل من نصوص
تتحدَّث عن القضاء والقدر تماثل ما في القرآن الكريم
وتزيد عليه ١٠٩

ـ المقصود بالقضاء والقدر هو سبق علم الله تعالى بكلّ
ما يقع لا نفي الاختيار ولا التزهيد في الكسب ١١٠

● **المسلمون الجامدون فتنة لأعداء الإسلام وحجة عليه** ١١١
ـ إن الإسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد
ومحو للماضي القبيح، وقطع كل العلائق مع غير
الحقائق ١١١
ـ على كل الذين يفهمون الإسلام حق الفهم أن يرحبوا
بكل جديد لا يعارض العقيدة ولا تخشى منه مفسدة .. ١١٢
ـ في كل دين يوجد جامدون، وليست مقاومة الجديد
خاصة بجامدي الإسلام ١١٣
● **مدنية الإسلام** ١١٥
ـ تأخّر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة،
بل من الجهل بالشريعة ١١٥
ـ المدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان
بها التاريخ العام وتغصّ سجلاّته الخالدة بمآثرها الباهرة ١١٦
ـ ما بلغته حواضر العالم الإسلامي من التقدّم والرقيّ
في عصر سيادة الإسلام ١١٧
● **الردّ على حسّاد المدنية الإسلامية المكابرين** ١٢٠
ـ المدنية الإسلامية لم تكن نسخاً ولا نقلاً، وإنما هي
قد نبعت من القرآن، وتفجّرت من عقيدة التوحيد ١٢١
ـ اقتباس الحضارة الإسلامية عن غيرها لا يقدح في أصالتها ١٢١

- دور الإسلام عظيم ١٢٢
- أشدّ ما ابتلي به المسلمون اليوم هو التنافس على الإمارات والرئاسات ١٢٣
- المصائب التي حلّت بالمسلمين هي مما صنعته أيديهم، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن ١٢٣

● **اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها** ١٢٣

- كان اليونان والرومان قبل النصرانية من أرقى أمم الأرض، وبعدها بدؤوا بالتردّي والانحطاط ١٢٤
- ليس سبب تردّي كل من اليونان والرومان النصرانية، بل فساد الأخلاق، وانحطاط الهمم، وانتشار الإلحاد والإباحة، إضافة إلى غارات البرابرة من الخارج ١٢٦
- دعوى بعض الأوروبيين أنّ تغلُّب المسيحية على اليونان أخنى على عظمتها وذهب بمدنيّتها ليس صحيحاً ١٢٦
- النصرانية المحرفة أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ١٢٧
- الإسلام وحده هو الذي جدّد مدنية الشرق الدارسة، واستأنف صولته الذاهبة الطامسة ١٢٨

- دور الإفرنج الصليبيين والمغول في محاربة
الحضارة والتقدّم ١٢٨
- منافسات ملوك المسلمين الداخلية واتّباعهم
الشهوات، وإمعانهم في الضلالات، ومحيدهم
عن جادة القرآن القويمة، وفقدهم ما يزرعه في
الصدور من الأخلاق العظيمة قد قضت في الداخل
على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ١٢٨

● **سبب تأخر أوروبة الماضي ونهضتها الحاضرة** ١٢٩
- إن العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذ
الأوروبيين، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرَّجَ على
العرب تباهى بذلك بين قومه ١٢٩
- فولتير يرى أنّ محمداً ﷺ بلغ من الإصلاح ما لم يبلغ
لوثر وكالفن أدناه ١٣٠
- للمسيحية الفضل في تهذيب برابرة أوروبة ١٣١

● **سبب تأخّر اليابان الماضي ونهضتها الحاضرة** ١٣١
- ليست الوثنية سبب تأخر اليابان في الماضي،
ولا هي سبب تقدّمهم الحاضر ١٣٢
- خصوصية الإسلام ١٣٢
- لا جدال أنَّ الإسلام هو سببُ نهضةِ العرب وفتوحاتهم

المدهشة، وسبب تردّي المسلمين هو أنهم اكتفوا
في آخر الأمر من الإسلام بمجرّد الاسم، والحال
أنَّ الإسلام اسمٌ وفعلٌ ١٣٤

● **حثّ القرآن الكريم على العلم باعث للمسلمين على سبقهم لسائر الأمم في الرقي** ١٣٥

ـ العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقيّ واللحاق
بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون،
ووطَّنوا أنفسهم عليه، ولا يزيدهم الإسلام إلا
بصيرة فيه وعزماً ١٣٥

ـ مغالطات (سيكار) والرد عليها ١٣٦

ـ إذا كانت كلّ من فرنسة وإنكلترة تحترم الأديان فلماذا
هذا الاجتهاد في تنصير المسلمين؟! ١٣٩

● **كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية** ١٣٩

ـ لا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع
تربية دينية شأننا شأن سائر الأمم الأخرى ١٤٠

● **أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير** ١٤٢

ـ من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير
هو فقدهم كلّ ثقة بأنفسهم ١٤٢

ـ إنّ كل من سار على الدرب وصل، وإن المسلمين إذا

تعلّموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الأعمال
العمرانية التي يقوم بها الإفرنج ١٤٦
ـ أمثلة على قدرة المسلمين للنهوض والعمران ١٤٦
ـ قصة الخط الحديدي الحجازي ١٤٧
ـ الغاية من إنشاء الخط الحديدي الحجازي ومداه ١٤٩
ـ إنكلترة وفرنسة تعطلان الخط الحديدي الحجازي ... ١٥١
ـ محمد طلعة حرب كان في الحلبات الاقتصادية أمة وحده ١٥٤
ـ توسيع نشاط بنك مصر ليستوعب كثيراً من المشاريع
الاقتصادية الحيوية وبدرجة عالية من الجودة والإتقان ١٥٥
ـ أحمد حلمي باشا وعبد الحميد شومان مثل آخر
لقدرة المسلمين على منافسة الأوروبيين في الاقتصاد ١٥٧
● هكذا إذا توجّهت الهمم ١٥٩
● أهمية الإصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدّسة ١٥٩
ـ الشريعة الإسلامية لا تعرف نسباً ولا حسباً، إنما
أكرم الناس عند الله أتقاهم ١٦٠
ـ أحوال الحجاز لم تكن سوية في ظل حكم الأشراف .. ١٦١
ـ اختلال الأمن في الحجاز في ظلّ حكم أشراف مكة
كان معرَّةً وجم لها المسلمون ١٦٢
ـ الملك عبد العزيز آل سعود يحوّل الحجاز في سنة

واحدة من مسبعة تزأر فيها الضواري إلى مهد أمان
وقرار اطمئنان ١٦٢
ـ الأمن والأمان في العهد السعودي مضرب المثل
في العالم كله ١٦٣
ـ دور مصر في إعمار الحجاز ١٦٥
ـ تقارير الخبراء المصريين حول مستقبل العمران
في الحجاز ١٦٨

● **خلاصة الجواب: إن المسلمين ينهضون بمثل ما نهض غيرهم** ١٧٣
ـ إن التضحية والجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى
الذي يهتف بالعلوم كلها ١٧٤
ـ المسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم، وعملوا
بما حرَّضهم عليه كتابهم، أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين
والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا
على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم ١٧٥

● **كلمات مأثورة للأمير شكيب أرسلان مستخرجة من هذا الكتاب** ١٧٦

الفهرس ١٩١

* * *